جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالزقازيق

نظرات بلاغية
فى بعض الأمثال القرآنية

الدكتور
محمد عبد المنعم على متولى
مدرس البلاغة والنقد

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

"... رب اشرح لى صدرى. ويسر لى أمرى. واحلل عقدة من لسانى. يفقهوا قولى"

صدق الله العظيم

(سورة طه /٢٥-٢٨)



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

"ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون"

صدق الله العظيم

[سورة الزمر/٢٧]

= روى البيهقي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: "إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال".

البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤٨٦/١، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ٤٦٤/١

= قال الماوردي:

"من أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام".

الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣٨/٤، ومعترك الأقران ٤٦٤/١.

= **وقال الإمام الشافعى:**

"مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته المثبتة لاجتناب معصيته وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل".

البرهان للزركشى ٤٨٦/١، ومعترك الأقران للسيوطى ٤٦٤/١

= **"من إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين العلماء جيلا بعد جيل ثم يبقى أبدا رحب المدى سخى المورد كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمح عاليا يفوت طاقة الدارسين".**

الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانة /١٨، أ.د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله أفصح من نطق بلسان وأبلغ من عبر ببيان بعد بيان القرآن الكريم وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين. **أما بعد،،**

فما أروع أن يعيش الإنسان في رحاب القرآن الكريم ينعم بأمانه ويستروح نسماته ليجد في دوحته الأمن والإطمئنان وليستمد منه القوة: قوة الإيمان بالله الواحد القهار وليستنزل به رحمات الله وما أشد حاجة الإنسان إلى رحمات الله -عز وجل- لتستقيم له الحياة طيبة كريمة.

ولا ريب فى أن القرآن الكريم حياة هذه الأمة وسراجها الذى ينير لها السبل فيهديها إلى ما يحييها ويصلح بالها ويقوم من معوجها كما قال سبحانه: "...قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم" [سورة المائدة/ ١٥، ١٦].

ولاشك فى أن أغلى أمانى المسلم أن يشرفه الله -عز وجل- بخدمة القرآن الكريم وأن يوفقه لعمل يبرز به بعض جوانب الخير فى هذا الكتاب الذى لا تفنى عجائبه ولا ينفد عطاؤه.

وفى الحقيقة إننى حينما استقر بى الأمر على البحث فى القرآن الكريم توقفت أول الأمر لأن الكتابة عن القرآن الكريم أو عن جانب منه تمثل صعوبة على نفس المؤمن لحذره من الخطأ وسوء الفهم أو التعبير وهذا شعور يحس به كل مسلم يتعرض للكتابة عن القرآن الكريم إذا كان يقدره حق قدره ويطلع على شيء من حقيقة أمره لكن باب الأمل والحث على الاجتهاد الذى فتحه رسول الله - ﷺ- للمجتهدين: المصيبين والمخطئين حفزنى إلى البحث فى هذا الموضوع.

"نظرات بلاغية فى بعض الأمثال القرآنية"

وذلك لدواع وغايات يمكن إيرادها على سبيل الإجمال فيما يلى:

أولاً: إن هذا الموضوع إنما يستمد أهميته وقيمته الكبرى أصلا من القرآن الكريم ذاته إذ هو المصدر لمادته كما أن الغاية والمقصد محاولة تجلية بعض أسراره.

ثانياً: ربط الدرس البلاغى وتوظيف القاعدة البلاغية لخدمة القرآن الكريم حتى يؤتى -أى الدرس البلاغى- ثماره المرجوة منه.

ثالثاً: محاولة الخروج بالدرس البلاغى من دائرته المعهودة وذلك بتغليب الجانب التطبيقى على الجانب النظرى التقعيدى.

رابعاً: أن يقف الدارس البلاغى على ما فى هذه الأمثال من المزايا والأسرار والمسائل البلاغية. وما من ريب فى أن الدارس عندما يقف على المسائل والأسرار والمزايا البلاغية من خلال هذه الأمثال فسيكون لها أثر ووقع فى نفسه وتقر بذلك الضوابط البلاغية وتترسخ فى أعماق الأنفس، وفى سبيل تحقيق هذه الغايات تحدثت عن:

تعريف المثل والحكمة والفرق بينهما، كما تحدثت عن تعريف النادرة وعلاقة المثل بالقصة وذكرت أنواع المثل وأهم الفروق بين المثل والتمثيل، والأمثال فى القرآن الكريم وبيان أنواعها وأهميتها فى القرآن الكريم ثم انتقلت إلى الأمثال القرآنية محل الدراسة فتناولت مثلين للمنافقين وثلاثة أمثال للحياة الدنيا وثلاثة لأعمال الكافرين وواحدا لأعمال المؤمنين وواحدا لاتخاذ الأصنام آلهة تعبد من دون الله -عز وجل- ثم ذكرت أهم الخصائص لأمثال القرآن الكريم.

ومما ينبغى أن يكون على ذكر دائما أن البحث فى القرآن الكريم أو فى موضوع مستمد منه لا يستنفد كل ما فيه أو يستقصى ما يوحى به ويشير إليه لأن القرآن الكريم ذاته ثابت الكيان ثباته فى معايشة أحوال الناس وأطوار الحياة ولكن البحوث حوله غير ثابتة (أى غير مكتملة) يضيف فيها اللاحقون إلى ما استخلصه

السابقون تبعا لتنوع الفكر واتساع المعرفة وتباين المواهب والقرآن الكريم دائما:

"لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه"

وبعد: فحسبى أنها محاولة لإظهار بعض الأسرار البلاغية لبعض الأمثال القرآنية فإن أتت ثمارها المرجوة فـ "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم".

وإن كانت الأخرى فإنى أستغفر الله العظيم وأتوب إليه من أية زلة فى الفهم أو الاستنباط ومن أى خطأ فى التعبير أو التصوير.

وحسبى تلك المعايشة الروحية والفكرية للقرآن الكريم ولن يحرم المخطىء من الأجر إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على أشرف الخلق وحبيب الحق سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

".. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا"

الدكتور

محمد عبد المنعم على متولى

تعريف المثل

ذهب المبرد -رحمه الله- إلى القول بأن "المثل" مأخوذ من "المثال" وهو: قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول والأصل فيه التشبيه فقولهم: "مثل بين يديه" إذا انتصب معناه: أشبه الصورة المنتصبة و"فلان أمثل من فلان" أى أشبه بماله من الفضل. و"المثال" القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول فحقيقة "المثل": ما جعل كالعلم للتشبيه بحال كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطل

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد[١].

وقال الراغب -رحمه الله- "المثل" عبارة عن قول شيء يشبه قولا فى شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره نحو قولهم: "الصيف ضيعت اللبن" فإن هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك.

وعلى هذا الوجه ما ضرب الله -تعالى- من الأمثال فقال: "وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون" [سورة الحشر/٢١] وفى أخرى: ".... وما يعقلها إلا العالمون" [سورة العنكبوت/٤٣] والمثل يقال على وجهين: **أحدهما**: بمعنى "المثل" نحو شبه وشبه...

١- مقدمة كتاب مجمع الأمثال للميدانى ٧/١.

قال بعضهم: وقد يعبر بهما عن وصف الشيء نحو قوله تعالى: "مثل الجنة التى وعد المتقون" [سورة الرعد/٣٥] **والثاني**: عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى من المعانى أى معنى كان وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة وذلك أن "الند" يقال فيما يشارك فى الجوهر فقط و"الشبه" يقال فيما يشارك فى الكيفية فقط و"المساوى" يقال فيما يشارك فى الكمية فقط و"الشكل" يقال فيما يشاركه فى القدر والمساحة فقط و"المثل" عام فى جميع ذلك ولهذا لما أراد الله –تعالى– نفى التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال: "ليس كمثله شيء ...." [سورة الشورى/١١][١] وقال الزمخشرى –رحمه الله– فى أساس البلاغة: "ومثله به: شبهه وتمثل به: تشبه به ومثل الشيء الشيء: سوى به[٢].

وذكر –رحمه الله– فى الكشاف: "والمثل فى أصل كلامهم: بمعنى المثل وهو: النظير يقال: مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه[٣] بمورده[٤] مثل ولم يضربوا مثلا ولا رأوه أهلا للتسيير ولا جديرا بالتداول والقبول إلا قولا فيه غرابة

١- المفردات للراغب/٤٦٣.

٢- أساس البلاغة مادة "مثل".

٣- المضرب هو: الحالة المشبهة التى أريدت من الكلام.

٤- المورد هو: الحالة الأصلية التى ورد فيها الكلام.

من بعض الوجوه ومن ثم حوفظ عليه وحمى من التغيير .... وقد استعير المثل ..... للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وغرابة.

أما استعارته للحال فكقوله تعالى: مثلهم كمثل الذى استوقد نارا...." [سورة البقرة/١٧] أى حالهم العجيب الشأن كحال الذى استوقد ناراً.

وأما استعارته للوصف فكقوله تعالى: "ولله المثل الأعلى" [سورة النحل/٦٠] أى الوصف الذى له شأن من العظمة والجلالة وكقوله تعالى: "مثلهم فى التوراة ...." [سورة الفتح/٢٩] أى صفتهم وشأنهم المتعجب منه.

وأما استعارته للقصة فكقوله تعالى: "مثل الجنة التى وعد المتقون ...." [سورة الرعد/٣٥] أى فيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة ثم أخذ فى بيان عجائبها[١]*.

---

[١]- تفسير الكشاف ٧٢/١.

*- ويعلق الزركشى فى البرهان على كلام الزمخشرى بقوله: لا يقال إن فى هذه الأقسام الثلاثة تداخلا فإن حال الشىء هى وصفه ووصفه هو حاله لأنا نقول: الوصف يشعر ذكره بالأمور الثابتة الذاتية أو ما قاربها من جهة اللزوم للشىء وعدم الانفكاك عنه وأما الحال فيطلق على ما يتلبس به الشخص مما هو غير ذاتى له ولا لازم فتغايرا. وإن أطلق أحدهما على الآخر فليس ذلك إطلاقا حقيقيا (البرهان ٤٨٩/١).

وجاء فى لسان العرب أن "مثل" كلمة تسوية يقال: هذا مثله ومثله كما يقال: شبهه وشبهه بمعنى قال ابن برى: الفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة: تكون بين المختلفين فى الجنس والمتفقين لأن التساوى هو التكافؤ فى المقدار لا يزيد ولا ينقص. وأما المماثلة: فلا تكون إلا فى المتفقين تقول: نحوه كنحوه وفقهه كفقهه ولونه كلونه وطعمه كطعمه فإذا قيل: هو مثله على الإطلاق فمعناه: أنه يسد مسده وإذا قيل: هو مثله فى كذا فهو مساو له فى جهة دون جهة..... والمثل: الشبه يقال: مثل ومثل وشبه وشبه بمعنى واحد ... والمثل والمثيل: كالمثل والجمع أمثال وهما يتماثلان ... والمثل: الشىء الذى يضرب لشىء مثلا فيجعل مثله وفى الصحاح: ما يضرب به من المثال. قال الجوهرى: ومثل الشىء أيضا صفته ... والمثال: المقدار وهو من الشبه والمثل: ما جعل مثالا أى مقدارا لغيره يحذى عليه[1].

وقال محمد بن أبى بكر الرازى -رحمه الله- "مثل" كلمة تسوية يقال هذا "مثله" و"مثله" كما يقال: شبهه وشبهه والمثل: ما يضرب به من الأمثال و"مثل" الشىء أيضا بفتحتين: صفته[2].

١- لسان العرب مادة "مثل".

٢- مختار الصحاح مادة "مثل" /٦١٤.

وذكر صاحب "المنجد" أن "المثل" الشبه والنظير والقول السائر بين الناس بمضربه أى الحالة الأصلية التى ورد فيها الكلام وألفاظ الأمثال لا تغير تذكيرا وتأنيثا وإفرادا وتثنية وجمعا بل ينظر فيها دائما إلى مورد المثل أى أصله ويوصف به المذكر والمؤنث والجمع ويطلق على العبرة والصفة والحجة[١].

وجاء فى المعجم العربى الأساسى أن "المثل" جملة من القول مقتطعة من كلام أو مرسلة بذاتها تنقل مما وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير مثل: "الصيف ضيعت اللبن" ... و"المثل" و"المثل": الشبه والنظير[٢] ويفرق فضيلة الأستاذ الشيخ/ محمد متولى الشعراوى بين المثل (بكسر الميم) والمثل (بفتح الميم) فيقول: إن كلمة "مثل" (بكسر الميم) تعنى التشبيه بشىء أى أن هذا الشىء الذى نتحدث عنه يشبه كذا تماما ولذلك قال الله تعالى: "فأتوا بسورة من مثله ..." [سورة البقرة/٢٣] و"فأتوا بسورة مثله" [سورة يونس/٣٨] ومعنى ذلك: فأتوا بسورة كالقرآن تماما أى أن هناك تشبيه حالة بحالة.

ونحن إذا أردنا فى الدنيا أن نستعمل كلمة "مثل" (بكسر الميم) نقول: هذا الشىء مثل الكرة لأنه مستدير كهيئة الكرة تماما .....

١- المنجد فى اللغة والأعلام /٧٤٧.

٢- المعجم العربى الأساسى مادة "مثل" /١١١٨.

فنحن هنا نشبه حالة بحالة أو مفردا بمفرد.

أما "المثل" (بفتح الميم) فهو يختلف عن ذلك تماما ذلك لأنها لا تشبه شيئا فرديا بشىء فردى ولا تشبه حالة بحالة مثلها ولكن المثل يأتى لتقريب فكرة ما إلى الذهن البشرى بحيث يستطيع أن يستوعبها ولا يشترط أن يكون المثال من نفس نوع الشىء الذى نتحدث عنه بل قد يكون مختلفا تماما ولكنه فقط يعطينا الفكرة[١].

فكأن الشيخ يريد أن يقول: إن "المثل" (بكسر الميم) هو الذى يكون مساويا للشىء فى تمام الماهية. و"المثل" (بفتح الميم) هو الذى يكون مساويا للشىء فى بعض الصفات الخارجة عن الماهية.

هذا: والمثل فى الأدب: قول محكى سائر يقصد به تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله أى يشبه مضربه بمورده كقولك للمخطىء يصيب أحيانا: "رب رمية من غير رام" أى رب رمية مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطىء وعلى هذا فلابد له من مورد يشبه مضربه به ولا تختلف صيغة المثل فى كل استعمالاته فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث بصيغته التى ورد عليها لأن العرب تجرى الأمثال على ما جاءت وكما وقعت فى الأصل ولا تستعمل فيها الإعراب ويطلق المثل

١- معجزة القرآن ٦/٦٠٥.

على الحال والصفة والقصة العجيبة الشأن وبهذا المعنى فسر لفظ المثل فى كثير من الآيات[١]. وقد أشار الزمخشرى -كما ذكرت-[٢] فى الكشاف إلى هذه المعانى الثلاثة[٣].

وهناك معنى رابع ذهب إليه علماء البلاغة فى تعريف المثل فهو عندهم: المجاز المركب الذى تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله وأصله الاستعارة التمثيلية التى هى: اللفظ المركب المستعمل فىمعنى مشبه بمعناه الأصلى تشبيه تمثيل كقولك للمتردد فى فعل أمر: ما لى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى"[٤].

ويذكر الأستاذ الدكتور/ عبد الغنى الراجحى تعريفا للمثل فيقول: "وقد يقال فى ضبطه: إنه جملة من القول تستقل بذاتها وتشتهر بالقبول والتداول فتنقل عما وردت فيه أولا إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها فى لفظها وقد يتوسع فى ضابطه فيمتد إلى كل كلام بليغ شائع حسن مشتمل على تشبيه رائع أو استعارة تمثيلية أو كلمة جامعة أو موعظة نافعة أو كتابة بديعة.

١- علوم التفسير /١١٦، ومن علوم القرآن وتحليل نصوصه /٤٩.

٢- راجع: ص١١ وما بعدها من هذا البحث.

٣- انظر: الكشاف ٧٢/١.

٤- الإيضاح/ ١٧٣.

ثم إنه كثيرا ما يطلق -لاسيما فى القرآن الكريم- ويراد به الحالة والشأن الغريب والوصف العجيب والقصة الطريفة -سواء كان فى الكلام تشبيه أو لا.....ثم يورد نماذج من القرآن الكريم لتوضيح هذا[1].

وقيل فى ضابط المثل كذلك: إنه إبراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا. والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد كما لا يشترط أن يكون مجازا مركبا[2].

أما الحكمة فهى: قول موجز مشهور صائب الفكرة رائع التعبير يتضمن معنى مسلما به يهدف إلى الخير والصواب.

وتختلف الحكمة عن المثل فى أمرين:

أولهما: أنها لا ترتبط فى أساسها بحادثة أو قصة **وثانيهما**: أنها تصدر غالبا عن طائفة خاصة من الناس لها خبرتها وتجاربها وثقافتها.

ومن الحكم المأثورة عن العرب:

١- "آفة الرأى الهوى" فالميل مع العاطفة يفسد الرأى.

٢- "من شدد نفر ومن تراخى تألف" فالناس تنفر من الشديد

١- النهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم/ ٥٣ وما بعدها.

٢- مباحث فى علوم القرآن/ ٢٩٢.

القاسى وتميل إلى اللين الرحيم[١].

٣- "رأس الحكمة مخافة الله".

٤- "العقل السليم فى الجسم السليم".

فهذه الأقوال كلها حكم لا أمثال إذا لم يرد بها تشبيه المناسبة التى قيلت فيها بالمناسبة التى وردت فيها لأول مرة وإنما يذكرها من يذكرها فى درج الكلام لإيضاح معنى أو تقريره وتوكيده وبعضها يشترك مع المثل فى الشهرة والذيوع.

وأما النادرة فهى: حكمة صحيحة تؤدى ما يؤدى عنه المثل إلا أنها لم تشع فى الجمهور ولم تجر إلا بين الخواص[٢].

وهناك علاقة بين المثل والقصة لما بينهما من ارتباط لأن المثل رمز أو عنوان لقصة وقعت على مسرح الحياة مع ملاحظة أن جميع الأمثال ليست على تلك الشاكلة أو أن القصة تتسم عرض كل مثل فالحكم المتقدم يتعلق بالمجموع لا بالجميع لأن المشهور أن المثل قد ينشأ عن حادث أو تشبيه أو قصة أو حكمة أو شعر أو ما شابه ذلك من صور الحياة كما يجمع المثل والقصة قدر مشترك من تنبيه الذهن إلى أخذ العبرة وقياس الحال على الحال.

---

[١]- البلاغة بين الأمثال القرآنية والنبوية /١٦.

[٢]- موسوعة الأمثال القرآنية ١٧٣/١.

أنواع المثل

النوع الأول: المثل الموجز السائر وهو:

أ- إما شعبى لا تعمل فيه ولا تكلف ولا تقيد بقواعد النحو ويستهدف وصف جزئية من الجزئيات كحادث أو شخص أو هيئة أو حركة أو نكتة لفظية.

ب- وإما كتابى أو حقيقى له أصل معروف نقل عنه وسيق له وصادر عن ذوى الثقافة العالية نحو: "رمية من غير رام" و"ما يوم حليمة بسر" و".... كالمستجير من الرمضاء بالنار".

وهذا اللون لا تغير صيغته بل تروى كما هى فى كل حالة مشابهة للحالة التى قيلت فيها واشترط الدارسون فى هذا اللون شروطا أربعة هى:

١- إيجاز اللفظ ٢- إصابة المعنى ٣- حسن التشبيه

٤- جودة الكناية[١] بالإضافة إلى المورد والمضرب.

النوع الثانى: المثل الفرضى وهو: ما كان من تخيل أديب وضعه على لسان طائر أو حيوان أوجماد أو نبات أو ما شاكل ذلك ومن مزايا هذا النوع: أنه يساعد على النقد والتهكم والسخرية

---

[١]- مجمع الأمثال للميدانى ٨،٧/١ وراجع: أدب الدنيا والدين /٣٤٣.

إذا ما ساد الاستبداد وعم الظلم وهو وسيلة ناجحة للوعظ والتهذيب والفكاهة والتسلية والحذر وغير ذلك وكتاب كليلة ودمنة أوضح مثال لهذا النوع.

النوع الثالث: المثل القياسي وهو: صورة بيانية لتوضيح فكرة ما عن طريق التشبيه والتمثيل ويسميه البلاغيون: التشبيه التمثيلي وهو يكون مركبا لأنه تشبيه شيء بشيء لتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين بالآخر وذلك بقصد التأديب والتهذيب أو التوضيح والتصوير ويتميز هذا النوع بالإطناب والجمع بين عمق الفكرة وجمال التصوير[١].

والأمثال ليست على نمط واحد من روعة التصوير وقوة الأسلوب ومنها ما هو نظم ومنها ما هو نثر ومنها الطويل المحكم والقصير المحكم[٢].

والأصل فيها ألا تكون منمقة لأنها مرآة الشعوب توضح العادات والتقاليد وتصور المجتمع أصدق تصوير كما أنها تساق في مناسباتها دون أن يسبق المثل بلفظ يدل على الضرب.

١- انظر: البلاغة بين الأمثال القرآنية والنبوية /٩، وموسوعة الأمثال القرآنية ٢٣٢،٩٦،٩٥/١.

٢- راجع: العمدة لابن رشيق ٢٨٠/١-٢٨٦.

أهم الفروق بين المثل والتمثيل:

المثل: قول موجز مشهور له مورد ومضرب يردد فيه **والتمثيل:** لا يشترط فيه الإيجاز ولا الشهرة وليس له مضرب يذكر فيه وإن كان له مورد.

التشبيه فى المثل يصدق على حالات كثيرة مشابهة يحسن ترديده فيها أما التمثيل فالتشبيه فيه مقصور على الحالة التىورد فيها أو الشأن فيه أن يكون كذلك.

المثل عند ترديده يصبح استعارة تمثيلية أو مجازا مركبا دائما يستعار فيه المورد للمضرب أما التمثيل فليس بلازم فيه أن يكون مجازا بل يجوز فيه ذلك – والكثير من صوره لا تخرج عن التشبيه الحقيقى (تشبيه تمثيلى) استعملت فيه الألفاظ فى حقائقها اللغوية.

أداة التشبيه فى المثل لا وجه لها إلا إذا كانت الأداة هى أصل المثل كقولهم لمن أورده الطمع المهالك: "كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد" أما التمثيل فأداة التشبيه أصل فيه فإذا لم تذكر لفظا قدرت وتجرى عليه أحكام التشبيه المحذوف الأداة حينئذ من إفادة التوكيد والمبالغة إذا قرن بحذف الأداة حذف الوجه وهو فى التمثيل كثير غالب.

كثيرا ما يقترن التمثيل فى البيان القرآنى بكلمة "الضرب" على وجه الخبر ضرب كقوله تعالى: "وضرب الله مثلا رجلين..." [سورة النحل/٧٦] أو الأمر والإنشاء: "اضرب" كقوله تعالى: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا..." [سورة الكهف/٤٥] وقد يأتى الخبر فى صورة المضارع "كذلك يضرب الله للناس أمثالهم" [سورة محمد/٣] ويأتى الإنشاء فى صورة النهى "فلا تضربوا لله الأمثال...." [سورة النحل/٧٤] ومعنى الضرب هنا: الذكر أى ذكره مؤثرا فى النفوس تأثيرا قويا إقناعا وإمتاعا كما يؤثر الضرب فى المضروب. أما فى المثل فلا يصرح بالضرب بل هو أمر مضمر فى النفس ومعنى الضرب فى المثل هو: الاستعمال أى استعمال التركيب الذى ذكر أولا فى مورده مستعارا لمضربه[1].

المثل هو العبارة التى تصور المعنى والتمثيل هو: التصوير نفسه الذى صور هذه الحقيقة أو قربها إلى الأذهان أو وضحها بعد الخفاء أو جلاها للعقول حتى تكون واضحة وضوح الشمس وبعبارة أخرى المثل يطلق على الكلام والتمثيل هو الصورة التى صورها هذا الكلام.

والمثل إذا أحسن إيراده فى الكلام كان له وقع عظيم

---

[1]- من قضايا البلاغة والنقد /١١٨،١١٩.

فى النفوس وإحساس قوى لا يكون لعادى الكلام لأنه كما سبق يجمع بين الإيجاز وحسن التشبيه والإصابة والصدق وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة كما قال إبراهيم النظام. وقال ابن المقفع -الذى أطلق على الكلام الذى سيق للمثل مثلا-: "إذا جعل الكلام مثالا كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث"[1].

وقد ذكر الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- خصائص التمثيل ومزاياه وأنواعه ومواقعه وأسباب تأثيره فى النفوس بطريقته التحليلية الناقدة المثلى حاكيا إجماع أهل الحذق والبصر بصناعة الأدب والكلام ممن سماهم العقلاء وعقب على ذلك كله بذكر شواهد من القرآن الكريم فى شذرات يسيرة ومن الشعر فى الغالب الكثير[2].

ووضح صورة المثل بقوله: "واعلم أن المثل قد يضرب بجمل لابد فيها من أن يتقدمها مذكور يكون مشبها به ولا يمكن حذف المشبه به والاقتصار على ذكر المشبه ونقل الكلام إليه حتى كأنه صاحب الجملة إلا أنه مشبه بمن صفته وحكمه تلك الجملة. بيان هذا: أن قول النبى -ﷺ- "الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها

---

[1]- مجمع الأمثال للميدانى ٨،٧/١.

[2]- راجع: أسرار البلاغة /١١٥ وما بعدها.

راحلة"[١] لابد فيه من المحافظة على ذكر المشبه به الذى هو "الإبل" فلو قلت: "الناس لا تجد فيهم راحلة" أو "لا تجد فى الناس راحلة" كان ظاهر التعسف[٢].

وقد حذا حذوه من جاء بعده من علماء البيان ومنهم السكاكى والخطيب القزوينى[*] وسوف نعرض مزايا التمثيل وخصائصه عند الإمام عبد القاهر أثناء حديثنا عن أهمية الأمثال فى القرآن الكريم.

١- ورد فى فتح البارى -كتاب الرقاق- باب رفع الأمانة ٣٤١/١١ بلفظ: "إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة".

٢- أسرار البلاغة /١١٣.

*- لقد كان مفهوم التمثيل عاما عند القدماء من علماء البلاغة فقد أطلقوه على كثير من الصور البيانية كالاستعارةوالمجاز والكناية والتشبيه الاصطلاحى...وظل مفهوم التمثيل عاما حتى جاء الإمام عبد القاهر الجرجانى فحدد مفهومه وفرق بينه وبين التشبيه الاصطلاحى وكشف النقاب عن بلاغته ثم تلاه السكاكى ثم الخطيب القزوينى وهؤلاء الثلاثة قد أدلوا بدلائهم فى الحديث عن هذا الفن البيانى الجميل وعنوا بدراسته وإظهار محاسنه والكشف عن لطائفه وأسراره ثم وضعوا فروقا بينه وبين التشبيه الاصطلاحى: (راجع: نقد الشعر /١٥٩-١٦١ والصناعتين /٣٨٩-٣٩٣ والعمدة لابن رشيق ٢٧٧/١-٢٨٠ وأسرار البلاغة /٩٠ وما بعدها ومفتاح العلوم /٣٤٦ وما بعدها والإيضاح /١٤١ وما بعدها ونظرات فى التمثيل البلاغى /٤-١٠.

ويقول العلامة أبو السعود: "... فإن التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبى وقمع سورة الجامح الأبى كيف لا؟ وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية وإبراز لها فى معرض المحسوسات الجلية وإبداء للمنكر فى صورة المعروف وإظهار للوحشى فى هيئة المألوف"[١].

الأمثال فى القرآن الكريم

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن الكريم نلاحظ أنها تتفق مع الأمثال العربية فى مدلولها العربى كما نلاحظ أنه لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى الذى هو الشبيه والنظير ولا يستقيم حملها على ما يذكر فى كتب اللغة لدى من ألفوا فى الأمثال إذ ليست أمثال القرآن الكريم أقوالا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها لأن الله -عز وجل- ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل فمضربها عين موردها كما لا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان لأن منها ما ليس باستعارة ولم يفش استعماله كما أنها لا تخضع للشروط أو الصفات التى ذكرها الدارسون للأمثال العربية[٢]

١- إرشاد العقل السليم ٦٠/١.

٢- راجع ص١٩،١٨ من هذا البحث.

لأن للقرآن أسلوبا يتميز به على سائر الكلام فأحيانا يوافق الشروط المطلوبة وأحيانا يخرج عليها ولكنه فى كلتا الحالتين يظل مثلا من أمثال القرآن المتعددة الأنواع. لأن الأمثال فى القرآن الكريم منها المصرحة ومنها الكامنة ومنها المرسلة كما سيأتى كما نلاحظ أن لفظ المثل فى القرآن الكريم كثيرا ما يقترن بلفظ الضرب فيقال: "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة....." [سورة إبراهيم/٢٤] و "... فلا تضربوا لله الأمثال" [سورة النحل/٧٤] و"ضرب الله مثلا عبدا مملوكا..." [سورة النحل/٧٥] و"..ضرب مثل.." [سورة الحج/٧٣] و"واضرب لهم مثلا..." [سورة يس/١٣] و"ضرب لنا مثلا..." [سورة يس/٧٨] وغير ذلك من الآيات الكريمة التى اقترن فيها لفظ الضرب بلفظ المثل.

وإذا كان الأمر كذلك: فإن الضابط الأليق بتعريف المثل فى القرآن الكريم هو -ولله العلم-: إبراز المعنى فى صورة حسية رائعة تكسبه جمالا سواء كانت تشبيها أو قولا مرسلا[1].

---

[1]- راجع: روح المعانى للألوسى ١٦٣/١، مباحث فى علوم القرآن /٢٩٢ والنهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم /٥٦ وموسوعة الأمثال القرآنية ١٧٨/١،١٧٩.

أنواع الأمثال القرآنية

الأمثال فى القرآن الكريم ثلاثة أنواع:

١- الأمثال المصرحة ٢- الأمثال الكامنة ٣- الأمثال المرسلة

النوع الأول: الأمثال المصرحة[١] وهى: ما صرح فيها بلفظ المثل أو بما يدل عليه من تشبيه أو نظير أو سياق أو أية دلالة كانت وهى كثيرة جدا فى القرآن الكريم نورد منها ما يأتى:

١- قوله تعالى فى حق المنافقين: "مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق .... إن الله على كل شىء قدير" [سورة البقرة/١٧-٢٠].

ففى هذه الآيات الكريمة ضرب الله -عز وجل- للمنافقين بحسب حالهم مثلين: مثلا ناريا فى قوله -تعالى- "كمثل الذى استوقد نارا..." لما فى النار من مادة النور ومثلا مائيا فى قوله -عز وجل- "أو كصيب من السماء" لما فى الماء من مادة الحياة وقد نزل الوحى من السماء متضمنا لاستنارة القلوب وحياتها وذكر الله -عز وجل- حظ المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحى فى الحالين.

---

[١]- ويمكن تسميته بالمثل القياسى.

فهم بمنزلة من استوقد نارا للإضاءة والنفع حيث انتفعوا ماديا بالدخول فى الإسلام ولكن لم يكن له أثر نورى فى قلوبهم فذهب الله -عز وجل- بما فى النار من الإضاءة (ذهب الله بنورهم) وأبقى ما فيها من الإحراق وهذا مثلهم النارى.

وذكر مثلهم المائى فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع أصبعيه فى أذنيه وغمض عينيه خوفا من صاعقة تصيبه لأن القرآن الكريم بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق.

٢- وذكر الله -عز وجل- المثلين: المائى والنارى -فى سورة الرعد للحق والباطل فقال -تعالى-: "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال" [سورة الرعد/١٧].

شبه الوحى الذى أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات وشبه القلوب بالأودية والسيل إذا جرى فى الأودية احتمل زبدا وغثاء فكذلك الهدى والعلم إذا سرى فى القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها وهذا هو المثل المائى

فى قوله -تعالى- "أنزل من السماء ماء..." وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

وذكر المثل النارى فى قوله -عز وجل- "ومما يوقدون عليه فى النار...." فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذى ينتفع به فيذهب جفاء. فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث[١].

النوع الثانى من الأمثال: الأمثال الكامنة وهى: التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها من أمثال العرب المعروفة فهى أمثال بمعانيها لا بألفاظها ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

١- ما فى معنى قولهم: "خير الأمور الوسط".

أ- قوله -تعالى- فى البقرة: "لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك" [سورة البقرة/٦٨].

ب- قوله -تعالى- فى النفقة: "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما" [سورة الفرقان/٦٧].

---

[١]- راجع: البرهان فى علوم القرآن ١/٤٩٣-٤٩٥، وانظر: الأمثال فى القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ٩-١٢.

جـ- قوله -تعالى- فى الصلاة: "ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا" [سورة الإسراء/١١٠].

د- قوله -تعالى- فى الإنفاق: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط" [سورة الإسراء/٢٩].

٢- ما فى معنى قولهم: "ليس الخبر كالمعاينة".

قوله تعالى فى سيدنا إبراهيم -عليه السلام-: "قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى" [سورة البقرة/٢٦٠].

٣- ما فى معنى قولهم: "من جهل شيئا عاداه".

أ- قوله -تعالى- "بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه" [سورة يونس/٣٩].

ب- قوله -تعالى- "وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم" [سورة الأحقاف/١١].

٤- ما فى معنى قولهم: "فى الحركات البركات".

قوله تعالى: "ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة...." [سورة النساء/١٠٠].

٥- ما فى معنى قولهم: "كما تدين تدان".

قوله -تعالى- "من يعمل سوءا يجز به" [سورة النساء/١٢٣].

٦- ما فى معنى قولهم: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين".

قوله -تعالى- على لسان سيدنا يعقوب -عليه السلام- "قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل" [سورة يوسف/٦٤].

٧- ما فى معنى قولهم: "حين تقلى تدرى".

قوله -تعالى- ".....وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا" [سورة الفرقان/٤٢].

٨- ما فى معنى قولهم "احذر شر من أحسنت إليه".

قوله -تعالى- "وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله" [سورة التوبة/٧٤].

٩- ما فى معنى قولهم: "من أعان ظالما سلط عليه".

قوله -تعالى- "كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير" [سورة الحج/٤].

١٠- ما فى معنى قولهم "لا تلد الحية إلا حية".

قوله -تعالى- "ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا" [سورة نوح/٢٧].

١١- ما فى معنى قولهم: "للحيطان آذان".

قوله -تعالى- "وفيكم سماعون لهم" [سورة التوبة/٤٧].

١٢- ما فى معنى قولهم: "الجاهل مرزوق والعالم محروم".

قوله -تعالى- "من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا" [سورة مريم/٧٥].

١٣- ما فى معنى قولهم: "الحلال لا يأتيك إلا قوتا والحرام لا يأتيك إلا جزافا".

قوله -تعالى- "إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم" [سورة الأعراف/١٦٣].

<u>النوع الثالث من الأمثال</u>: الأمثال المرسلة وهى: جمل أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه. فهى آيات جارية مجرى الأمثال وهى فى جملتها مبادىء خلقية ودينية مركزة. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

١- "ليس لها من دون الله كاشفة" [سورة النجم/٥٨].

٢- "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" [سورة آل عمران/٩٢].

٣- "الآن حصحص الحق" [سورة يوسف/٥١].

٤- "وضرب لنا مثلا ونسى خلقه" [سورة يس/٧٨].

٥- "ذلك بما قدمت يداك" [سورة الحج/١٠].

٦- "قضى الأمر الذى فيه تستفتيان" [سورة يوسف/٤١].

٧- "أليس الصبح بقريب" [سورة هود/٨١].

٨- "وحيل بينهم وبين ما يشتهون" [سورة سبأ/٥٤].

٩- "لكل نبأ مستقر" [سورة الأنعام/٦٧].

١٠- "ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله" [سورة فاطر/٤٣].

١١- "قل كل يعمل على شاكلته" [سورة الإسراء/٨٤].

١٢- "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم" [سورة البقرة/٢١٦].

١٣- "كل نفس بما كسبت رهينة" [سورة المدثر/٣٨].

١٤- "ما على الرسول إلا البلاغ" [سورة المائدة/٩٩].

١٥- "ما على المحسنين من سبيل" [التوبة/٩١].

١٦- "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" [سورة الرحمن/٦٠].

١٧- "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة" [سورة البقرة/٢٤٩].

١٨- "الآن وقد عصيت قبل" [سورة يونس/٩١].

١٩- "تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى" [سورة الحشر/١٤].

٢٠-" ولا ينبئك مثل خبير" [سورة فاطر/١٤].

٢١-"كل حزب بما لديهم فرحون" [سورة الروم/٣٢].

٢٢- "ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم" [سورة الأنفال/٢٣].

٢٣- "وقيل من عبادى الشكور" [سورة سبأ/١٣].

٢٤- "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" [سورة البقرة/٢٨٦].

٢٥- "قل لا يستوى الخبيث والطيب" [سورة المائدة/١٠٠].

٢٦- "ظهر الفساد فى البر والبحر" [سورة الروم/٤١].

٢٧- "ضعف الطالب والمطلوب" [سورة الحج/٧٣].

٢٨- "لمثل هذا فليعمل العاملون" [سورة الصافات/٦١].

٢٩- "وقليل ما هم" [سورة ص/٢٤].

٣٠- "فاعتبروا يا أولى الأبصار" [سورة الحشر/٢].[١]

واختلفوا فى هذا النوع من الآيات الذى يسمونه إرسال المثل ما حكم استعماله استعمال الأمثال؟ فرآه بعض أهل العلم خروجا عن أدب القرآن الكريم قال الرازى -رحمه الله- فى تفسير قوله تعالى: لكم دينكم ولى دين" [سورة الكافرون/٦] "جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل يتدبر فيه ثم يعمل بموجبه"[٢].

---

[١]- راجع: الإتقان ٣٩/٤-٤٥ ومعترك الأقران ٤٦٦/١-٤٧١ والتحبير فى علم التفسير /٣١٤-٣١٦.

[٢]- مفاتيح الغيب ٧٢٢/١٦.

ونقل الزركشى فى البرهان عن أبى عبيد النخعى قال: "كانوا يكرهون أن يتلوا الآية عند شيء يعرض من أمور الدنيا.

قال أبو عبيد: وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهم بحاجته فيأتيه من غير طلب فيقول كالمازح: "جئت على قدر يا موسى" [سورة طه/٤٠] فهذا من الاستخفاف بالقرآن الكريم، ومنه قول ابن شهاب: "لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسول الله -ﷺ- قال أبو عبيد: يقول: لا تجعل لهما نظيرا من القول ولا الفعل[١].

ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن فى مقام الجد كأن يأسف أسفا شديدا لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: "ليس لها من دون كاشفة" [سورة النجم/٥٨] أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: "لكم دينكم ولى دين" [سورة الكافرون/٦] والإثم الكبير فى أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى فى مقام الهزل والمزاح[٢].

ولا يجوز تعدى أمثلة القرآن ولذلك أنكر على الحريرى فى قوله فى مقامته الخامسة عشرة: "فأدخلنى بيتا أحرج من التابوت

١- البرهان ٤٨٣/١.

٢- مباحث فى علوم القرآن/٢٩٧ وعلوم التفسير /١٢١.

وأوهى من بيت العنكبوت" فأى معنى أبلغ من معنى أكده الله -عز وجل- من ستة أوجه حيث قال: "وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت" [سورة العنكبوت/٤١] فأدخل إن وبنى أفعل التفضيل وبناه من الوهن وأضافه إلى الجمع وعرف الجمع باللام وأتى فى خبر إن باللام وقد قال -تعالى- "وإذا قلتم فاعدلوا" [سورة الأنعام/١٥٢].

وكان اللائق بالحريرى ألا يتجاوز هذه المبالغة وما بعد تمثيل الله -عز وجل- تمثيل وقول الله أقوم قيل وأوضح سبيل[١].

وسوف نقتصر فى دراستنا هذه على بعض الأمثال القرآنية الخاصة بالنوع الأول (الأمثال المصرحة) وأما بالنسبة للنوعين: الثانى والثالث فلن نتناولهما فى هذه الدراسة لأن النوع الثانى (الأمثال الكامنة) قد اختلف فيه العلماء المهتمون بالدراسات القرآنية حيث ذهب البعض إلى إثباته مستندا إلى أدلة مردود عليها وذهب البعض إلى القول بعدم وجوده مستندا إلى أدلة قوية.

ولأن النوع الثالث (الأمثال المرسلة) لم يكن أمثالا وقت نزول القرآن الكريم وإنما شاع أمره بين المسلمين فيما بعد نزوله.

---

[١]- البرهان ٤٨٤/١.

أهمية الأمثال فى القرآن الكريم

لقد كان للأمثال فى القرآن الكريم دور فى الدعوة الإسلامية لأنها لون من ألوان الهداية الربانية فتحث النفوس على عمل الخير وتحضها على البر وتحذر من الكفر والشر.

فمن تدبير الله -عز وجل- لعباده أن ضرب لهم الأمثال لحاجتهم إليها فتزجرهم عن الشر ومقارفة الإثم وترغبهم فى الفضيلة وتنهاهم عن الرذيلة وليعقلوا بها ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة إذ هى الطريق إلى المعانى المحتجبة فى الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها وتصورها للأفهام. ويحدد لنا الزركشى -رحمه الله- أهمية الأمثال بقوله:

وضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل وتصويره فى صورة المحسوس بحيث تكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس[١].

ويضيف السيوطى -رحمه الله- إلى هذا قوله:

فإن الأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص لأنها أثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل

١- البرهان فى علوم القرآن ٤٨٦/١، ٤٨٧.

تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالمشاهد[١]. وحتى تتضح لنا هذه الفوائد يوضح لنا الزركشى ويتابعه السيوطى فيقول:

وتأتى أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر وعلى المدح والذم وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر قال تعالى "وضربنا لكم الأمثال" [سورة إبراهيم/٤٥] .... ويضيف الزركشى إلى هذا قوله:

والأمثال مقادير الأفعال والمتمثل كالصانع الذى يقدر صناعته وكالخياط يقدر الثوب على قامة المخيط ثم يضربه ثم يقطع وكل شيء له قالب ومقدار وقالب الكلام ومقداره الأمثال[٢].

هذا: ويمكن تلخيص أهمية الأمثال فيما يلى:

١- الأمثال تبرز المعقول فى صورة المحسوس الذى يلمسه الناس فيتقبله العقل لأن المعانى المعقولة لا تستقر فى الذهن إلا إذا صيغت فى صورة حسية قريبة الفهم.

٢- وتكشف الأمثال عن الحقائق وتعرض الغائب فى معرض الحاضر.

---

[١]- الإتقان ٣٩،٣٨/٤ ومعترك الأقران ٤٦٥/١.

[٢]- البرهان ٤٨٧/١ ومعترك الأقران ٤٦٥/١.

٣- وتجمع الأمثال المعنى الرائع فى عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة.

٤- ويضرب المثل للترغيب فى الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس.

٥- ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس.

٦- ويضرب المثل لمدح الممثل به.

٧- ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس.

٨- وهى أوقع فى النفس وأبلغ فى الوعظ وأقوى فى الزجر وأقوم فى الإقناع.

وقد أكثر الله -عز وجل- الأمثال فى القرآن الكريم للتذكرة والعبرة وضربها النبى -ﷺ- فى حديثه واستعان بها الداعون إلى الله تعالى فى كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة ويستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق ووسائل التربية فى الترغيب أو التنفير فى المدح أو الذم[١].

وما بالنا نذهب بعيدا والإمام عبد القاهر الجرجانى يقول

١- راجع: مباحث فى علوم القرآن /٢٩٧-٢٩٩ وعلوم التفسير /١٢١-١٢٣ والوحدة الفنية فى القصة القرآنية /١٨٢.

فى كتابه "أسرار البلاغة" عن التمثيل ما يشفى الغلة ويروى الظمأ ويكشف عن وجه الحقيقة، يقول بعد أن عرف الفرق بين التشبيه والتمثيل: "فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا"[١] ثم يوضح الإمام عبد القاهر -رحمه الله- مزايا التمثيل وخصائصه فيقول:

واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكساها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا.

فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم وأنبل فى النفوس وأعظم وأهز للعطف وأسرع للإلف وأجلب للفرح وأغلب على الممتدح وأوجب شفاعة للمادح وأقضى له بغر المواهب والمنائح وأسير على الألسن وأذكر وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

وإن كان ذما كان مسه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أشد وحده أحد.

وإن كان حجاجا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر.

١- أسرار البلاغة /٩٥.

وإن كان افتخارا كان شأوه أمد وشرفه أجد ولسانه ألد.

وإن كان اعتذارا[١] كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب وللسخائم أسل ولغرب الغضب أفل وفى عقد العقود أنفث وعلى حسن الرجوع أبعث.

وإن كان وعظا كان أشفى للصدر وأدعى للفكر وأبلغ فى التنبيه والزجر وأجدر بأن يجلى الغياية ويبصر الغاية ويبرىء العليل ويشفى العليل.

وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه وتتبعت أبوابه وشعوبه"[٢] وعقب على ذلك بذكر شواهد من القرآن الكريم فى شذرات يسيرة ومن الشعر فى الغالب الكثير[٣].

هذا: ولقد اتخذ القرآن الكريم من الأمثال وسيلة من وسائل الكشف والإيضاح والتهذيب والتربية والتبشير والإنذار والترغيب

١- الاعتذار لا يوجد فى القرآن الكريم إلا حكاية عن أصحاب المعاذير الكاذبة ليكون الاعتذار حجة عليهم فهو اعتذار فى الظاهر واحتجاج فى المعنى كقوله تعالى: "وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب" [سورة فصلت/٥]، "فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم/١١٩".

٢- أسرار البلاغة/١١٥،١١٦.

٣- راجع: المصدر السابق /١١٦ وما بعدها.

والترهيب والتزيين والتقبيح والهداية والضلال والتعظيم والتحقير وغير ذلك من الأغراض إلا أننا نلاحظ أن الهدف الدينى هو الطابع المسيطر على ما فى القرآن الكريم من أمثال.

ألا ترى أن الترغيب إذا وقع فى الإيمان مجردا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه فى القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنور وإذا زهد فى الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه فى العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة[١].

وسوف أعرض -بعون الله- نماذج من الأمثال القرآنية أتلمس من خلالها القيمة البلاغية التى فيها وسمة الإعجاز التى تتميز بها والأسلوب القرآنى فى تقريب البعيد وتجسيد المجردات وتهويل ما ينبغى تهويله من معانى التهديد والوعيد وغير ذلك.

وأبدأ بأول مثلين من أمثال القرآن الكريم حسب ترتيب المصحف الشريف فى شأن المنافقين فأقول وبالله التوفيق.

مثلى المنافقين فى سورة البقرة

١- يقول الله تعالى: "مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات

---

[١]- مفاتيح الغيب ٤٥٢/١.

ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير" [سورة البقرة/١٧-٢٠].

بعد أن كشفت الآيات السابقة عن أحوال المنافقين وجلت خصالهم وبينت ما طبعوا عليه من صفات عقب -عز وجل- هنا بضرب مثلين لهم زيادة في الكشف عن خصالهم وأحوالهم وإبرازها في معرض المحسوس المشاهد مبالغة في البيان والإيضاح.

وقد ذكرت فيما سبق[١] أن المثل الأول أطلق عليه المثل الناري أما المثل الثاني فيطلق عليه المثل المائي وذلك باعتبار ما جاء في كل منهما فالأول كان التمثيل بالنار والثاني كان أمر التمثيل بالماء الذي عبر عنه بالصيب وإليك التفصيل.

المثل الأول: قوله -عز وجل-: "مثلهم كمثل الذي استوقد نارا..... إلى قوله -تعالى- ".... فهم لا يرجعون".

فقد مثل الله -عز وجل- حال المنافقين في حيرتهم وتخبطهم وقلقهم واضطرابهم بحال الذي استوقد نارا ليستضيء بها وما كاد

١- راجع ص٢٦ وما بعدها من هذا البحث.

ضوء النار يبدو ويضيء له ما حوله حتى خمد حيث ذهب الله بنورهم فبقوا متخبطين متحيرين في ظلمات يعمهون لا يبصرون.
والتشبيه في النظم الكريم تشبيه مركب إذ المراد -ولله العلم- تشبيه حال المنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب وحيرة وتخبط يلوح لهم نور الإيمان حينا عندما يجرون كلمة الإسلام على ألسنتهم ولكن النور سرعان ما يذهب لتمكن الكفر من قلوبهم مثلت هذه الحال العجيبة بحال المستوقد الذي كد في استيقاد النار لحاجته إلى الضوء وما كاد الضوء يبدو ويلوح له حتى ذهب فصار في ظلام لا يبصر ووجه الشبه هو: الهيئة الحاصلة من الوقوع في حيرة الحرمان والخيبة بعد ظهرو تباشير الرجاء[1].

وعندما نمعن النظر في صياغة هذا المثل نجد أن هذا التمثيل قد ذكر فيه لفظ "المثل" في جانب المشبه والمشبه به معا كما نجد أن الآية الكريم "مثلهم كمثل الذي استوقد نارا...." قد فصلت عما قبلها لكمال الاتصال لأنها منزلة مما قبلها منزلة عطف البيان إذ هي كاشفة وموضحة ومبينة بل هي زيادة في الكشف والإيضاح والتبيين لما سبق ذكره من أحوال المنافقين فقد جلت هذه الأحوال وبينتها في صورة محسوسة مشاهدة عن طريق ضرب المثل.

١- بلاغة تطبيقية دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص /٥٢.

والمراد بالمثل: الحال العجيبة أو الصفة الغريبة أو القصة ذات الشأن على سبيل الاستعارة كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن وصفتهم الغريبة كحال رجل استوقد نارا[١]. ومجيء المثل بهذا المعنى كثير فى القرآن الكريم.

وفى التعبير بالفعل "استوقد" دلالة على شدة حاجته إلى النار وأنه متلهف لها باذل أقصى جهده للحصول عليها فالتعبير بهذه الصيغة دون "أوقد" يشعر بالإعداد والأهمية ويدل على أنه بذل مجهودا فى طلب الضوء وعالج الأمور فى طلب الوقود حتى وصل إليه بجهد ومشقة كما ينبىء بمدى خوفه وقلقه وإحاطة الظلام به وتطلعه إلى أدنى نار تكشف ما أحاط به من ظلام وتبث الطمأنة وتذهب الخوف ولذا وردت "نارا" نكرة للدلالة -والله العلم- على التقليل فهو متلهف إلى نار قليلة تضىء له إضاءة ما.

وقيل إن التنكير يدل على التعظيم لأن النار التى استوقدها المستوقد أضاءت والإضاءة أعم وأكثر إشعاعا من الإنارة ثم إنها قد أضاءت جميع الجهات حيث قال "ما حوله" ليدل على أن الإضاءة قد أحاطت به وأضاءت جميع جهاته وهذا لا يكون إلا إذا كانت النار عظيمة هائلة.

---

[١]- راجع: تفسير الكشاف ٧٢/١ ومفاتيح الغيب ٤٥٤/١،٤٥٥.

وأميل إلى هذا القول لتلاؤمه مع السياق ودلالته على المبالغة فـى الأسـى والتحسر الـذى أصـاب المستوقد إذ بـدت النـار عظيمـة أضاءت كـل الكون مـن حولـه ثـم خمـدت فجـأة وذهـب ا للـه -عـز وجل- بها كلية مع حاجته الشديدة إليها ورغبته الملحة فـى استبقائها وهذا مما يزيد تحسره ويضاعف أساه. واختيـار "النـار" فـى الحديث عن الاستضاءه يناسب البيئة حيث إن إلفهـا لإيقـاد النـيران أكثر مـن إلفها للمصابيح[1] والفاء فـى قولـه تعـالى "فلمـا أضـاءت مـا حولـه..." للدلالة على ترتبها على الاستيقاد وفـى التعبير بـ "لمـا" دلالـة علـى المفاجأة وسرعة الزوال فما كاد الضوء يبزغ حتى زال وخبا وذهـب الله -عز وجل- به والنور قد سطع شديدا وبدد الظلام من كل جانب ولذا عبر عنه بقوله "أضاءت" والإضـاءة فرط الإنـارة فـالضوء فيـه نـور وزيـادة قـال تعـالى: "هـو الـذى جعـل الشـمس ضيـاء والقمـر نورا..." [سورة يونس/٥][2] ومعلوم أن نور القمر مستمد مـن ضيـاء الشمس. فالتعبير بـ "أضاءت" أبلغ من التعبير بـ "أنارت" لأن الضـوء مصدر النور. والتأنيث للحمل علـى المعنـى لأن مـا حـول المستوقد أماكن وأشياء.

ثـم جعـل الإضـاءة تشـمل جميـع الجهـات فقـال: "مـا حولـه"

١- أسلوب السخرية فى القرآن الكريم /١٥٣.

٢- تفسير الكشاف ٧٣/١.

والحول يدل على الدوران والإطافة ومع ذلك فقد خبا الضوء وخمد وذهب الله -عز وجل- به ذهابا تاما فور ظهوره فلم يبق للمستوقد أى نور وهذا ما يبعث الأسى والحسرة كما قلت.

فالضياء بزغ شديدا عم كل الجهات -كما أوضحت- واختفى سريعا اختفاء تاما على الرغم من شدة الاحتياج إليه ومما يصور الاختفاء التام قوله تعالى: "ذهب الله بنورهم" فالذهاب قد أسند إلى الله -عز وجل- إما لأن الكل بفعله -سبحانه- أو لأن الإطفاء حصل بسبب خفى أو أمر سماوى كريح أو مطر للمبالغة ولذلك عدى الفعل بالباء دون الهمزة -فلم يقل: أذهبه- لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك لأن معنى المعية مع القادر الفاعل له وضع دقيق ولذا يقال: ذهب السلطان بما له إذا أخذه وأمسكه وما أخذه الله -عز وجل- فلا مرسل له من بعده[1].

وعدل عن الضوء الذى هو مقتضى اللفظ إلى النور حيث قال: ذهب الله بنورهم ولم يقل: بضوئهم: لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم -ولله العلم- الذهاب بالزيادة دون أصل النور والغرض إزالة النور عنهم رأسا وطمسه أصلا مبالغة فى حلول الظلام[2] والجمع باعتبار المعنى. وكذا قوله

---

[1]- راجع: تفسير الكشاف ٧٤/١ ومفاتيح الغيب ٤٦٥/١.

[2]- راجع: تفسير الكشاف ٧٤/١ وحاشية الشهاب ٣٦٩/١ وما بعدها.

تعالى: "وتركهم فى ظلمات لا يبصرون" فترك هنا بمعنى: جعل أى صيرهم وجعلهم فى ظلمات لأنها إذا تعدت لمفعول واحد كانت بمعنى: طرحه وخلاه وإذا تعدت لمفعولين كانت متضمنة معنى التصبير والجعل وما فى الآية الكريمة من الثانى فهى متضمنة معنى التصبير والجعل.

وقد جمعت "ظلمات" ونكرت ووصفت بقوله: "لا يبصرون" وذلك للتهويل والإبهام فهى ظلمات مبهمة مهولة تراكم بعضها فوق بعض وأطبقت عليهم فاختطفت أبصارهم فصاروا لا يبصرون. ومفعول "لا يبصرون" محذوف وهذا الحذف من قبيل الطرح الذى لا يلتفت إلى إخطاره بالبال وليس من قبيل المقدر المنوى وكأن الفعل صار غير متعد أصلا والمعنى: تراكمت عليهم الظلمات فاختطفت أبصارهم فلم يعودوا من أهل الإبصار.

وبهذا يتضح لنا: كيف بولغ فى تصوير حلول الظلام بهم وذهاب الضوء الذى لم يكد يرى حتى خبا وخمد وذهب الله به فصاروا فى ظلمات وصاروا لا يبصرون.

(ومن اللطائف) أن "الظلمة" حيثما وقعت فى القرآن الكريم وقعت مجموعة و"النور" حيثما وقع وقع مفردا ولعل السبب هو: أن "الظلمة" وإن قلت تستكثر و"النور" وإن كثر يستقل ما لم يضر وأيضا كثيرا ما يشار بهما إلى نحو الكفر والإيمان والقليل من الكفر

كثير والكثير من الإيمان قليل فلا ينبغى الركون إلى قليل من ذاك ولا الاكتفاء بكثير من هذا وأيضا معدن الظلمة بهذا المعنى قلوب الكفار "تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى" [سورة الحشر/١٤] ومشرق النور بذلك المعنى قلوب المؤمنين وهى كقلب رجل واحد ..... وأيضا "الظلمة" يدور أصل معناها على المنع .... فكأنها سميت "ظلمة" لأنها تسد فى المشهور وتمنع الرؤية فباعتبار تعدد الموانع جمعت ولم يعتبر مثل هذا فى أصل معنى "النور" فلم يجمع أو لأن مصدر النور واحد وهو الله -عز وجل- ومصدر الظلمات وأسبابها متعددة فالشيطان ضال مضل والأصنام والأوثان مضلة والأهواء مضلة وأصدقاء السوء ضالون إلى غير ذلك[١].

وجواب "لما" فى قوله تعالى: "فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم" إما أن يكون قوله "ذهب الله بنورهم" وإما أن يكون محذوفا وتقديره: فلما أضاءت ما حوله خبت وخمدت فصاروا فى ظلام يتخبطون متحسرين على فوت الضوء الذى تعبوا فى استيقاده وعندئذ يكون قوله: "ذهب الله بنورهم" جملة مستأنفة استئنافا بيانيا وكأن سائلا سأل: لم خمدت النار فجأة وحل الظلام سريعا بعد ظهور الضوء الذى كدوا فى استخراجه؟ فيأتى الجواب: لأن الله ذهب بنورهم. وإنما جاز حذف الجواب لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس

١- روح المعانى ١٦٨/١ وخصائص التعبير القرآنى ٣٩٦/٢،٣٩٧.

للدال عليه وإنما كان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التى حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ فى أداء المعنى[١].

ويصح أن يكون الفصل لكمال الاتصال على أن جملة "ذهب الله بنورهم" مبينة لجملة التمثيل منزلة منها منزلة البدل.

ونلاحظ أن النظم القرآنى قد خالف بين الضميرين فى قوله تعالى: "استوقد" و"حوله" و"بنورهم وتركهم" حيث أفرد فى الأول وجمع فى الثانى ولعل السر في ذلك أن إفراد الضمير فى "استوقد" و"حوله" منظور فيه إلى جانب اللفظ لأن المنافقين كلهم على قول واحد وفعل واحد وأما جمع الضمير فى "بنورهم وتركهم" فمنظور فيه إلى جانب المعنى فلكون المقام تقبيح أحوالهم وبيان ذاتهم وضلالهم فإثبات الحكم لكل فرد منهم واقع.

وبعد تسجيل هذا المعنى الذى يوحى بالوقوف موقف الحيرة والقلق والاضطراب فى الدياجى القاتمة والآفاق المظلمة التى عاشوا فيها دون حراك يلعقون الآلام ويجترون الأسقام زاد النظم الكريم صورتهم بؤسا وألما ووضعهم تحت ثالوث البلاء والعناء والشقاء فهم: "صم بكم عمى..." فهم فى أسوأ حالة يكون فيها الإنسان بما

١- انظر: تفسير الكشاف ١/٧٣.

اختاروا لأنفسهم من مسارات الجهالة وطرائق العماية.

وفصل قوله تعالى: "صم بكم عمى..." عما قبله للاستئناف البيانى وكأن سائلا يسأل عند سماع قوله -عز وجل-: "مثلهم كمثل الذى استوقد نارا" فقال: لم صاروا فى هذه الحيرة وذلك الاضطراب؟ ولماذا كان تخبطهم فى الضلال حتى شبهوا بما شبهوا به؟ فجاء الجواب لأنهم سدوا عن الإصاخة للحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم وأن يبصروه بأعينهم وكأن وسائل إدراكهم قد إيفت -كما يقول الزمخشرى[1]- أى أصيبت بآفة وتعطلت وانتقض بناؤها فصاروا صما بكما عميا فالجواب يوحى بأن بين الجملتين شبه كمال اتصال.

وانظر كيف جاءت هذه الصفات بلا عاطف فالتحمت وصارت كأنها صفة واحدة تصور شدة نفورهم وإعراضهم عن الهدى وتأمل ما وراء حذف أداة التشبيه وطى المشبه -على نية تقديره- من مبالغة فى وصفهم بتلك الصفات "صم بكم عمى" والدلالة على شدة التصاقها بهم.

والآية من قبيل ما عرف عند البلاغيين المتأخرين بالتشبيه البليغ وهو: ما حذفت أداته ووجهه كقولهم: هم ليوث وهم بحور

---

[1]- تفسير الكشاف ٧٥/١.

إلا أن هذا فى الصفات وذاك فى الأسماء ولا يقال: إن المشبه فيها محذوف قد طوى عن الجملة لأن حذفه على نية التقدير فهو فى حكم المنطوق به ونظيره قول عمران بن حطان يخاطب الحجاج:

أسد على وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

والتقدير: أنت أسد على ونعامة فى الوغى.

وقد خلط بعض العلماء هذا التشبيه بالاستعارة فأدخلوه فيها وعدوه منها نظرا لما يفيده من المبالغة ولكنِ المحققين أبقوه فى دائرة التشبيه إذ الاستعارة إنما تطلق عندما يطوى ذكر المستعار له ويجعل الكلام خلوا منه كقولك: رأيت ليوثا تحارب وبحورا تتصدق[١].

والفاء فى قوله تعالى: "فهم لا يرجعون" للدلالة على أن اتصافهم بالأحكام السابقة سبب لتحيرهم واحتباسهم وتقديم المسند إليه "هم" على خبره الفعلى دلالة على توكيد نفى الرجوع فهم مستمرون على تلك الحالة لأنهم قد طبع على قلوبهم وصاروا صما بكما عميا فأنى لهم الرجوع إلى الهدى وقد باعوه واشتروا الضلالة وأنى لهم التخلى عن الضلال وهم فيه يتخبطون لا يدرون أيتقدمون أم

---

[١]- راجع: الوساطة /٤١ وأسرار البلاغة /٣٢١،٣٢٢ وتفسير الكشاف ١/٧٦-٧٨.

يتأخرون وإلى حيث ابتدأوا منه كيف يرجعون؟[1]

ولذلك فإن الإصرار على هدايتهم وبذل الجهد معهم لن يأتى بنتيجة لأن الله -عز وجل- بنفاقهم وظلمهم عطل وسائل الهداية التى كان من الممكن أن يعودوا بها إلى طريق الحق.

وبعد:

فلقد أدى هذا المثل القرآن دوره فى الإيضاح والتصوير وجعل المبهم واضحا والخفى جليا والغائب مشاهدا وهو من الوجهة الفنية دقيق المنزع رائع الدلالة عظيم الإيحاء فالهيئة التى شبه بها حال المنافقين هيئة مألوفة وبخاصة للعرب وهى إشعال النار فى البادية التماسا للضوء.

وهذا المثل يوحى بغباء المنافقين الذين ينصرفون عن الهداية بعد أن تتضح معالمها .... وما أحوجهم إلى الهداية احتياج المستوقدين للضوء.

وكأن الله -عز وجل- يريد -وهو أعلم بمراده- أن تتضح صورة هذا الصنف من الناس لأنهم الصنف الذى يمثل الخطورة الكامنة ويمثل البركان الذى يموج بالحركة فى داخله سرعان ما يتفجر ثم ينقضى فيحدث من الخسائر الجسيمة ما لا قبل للناس به

١- انظر: تفسير الكشاف ٧٨/١ وحاشية الشهاب ٣٨٦/١-٣٨٨.

فأراد الله -عز وجل-وهو أعلم بمراده- أن يحمى الدعوة الإسلامية فى مهدها بكشف هؤلاء فصورهم فى هذا المثل بكشف خلجات نفوسهم ونبضات قلوبهم ونوازع نفوسهم وأحاط بمكنونات أسرارهم وتغلغل فى أعماقهم... لقد كشفهم المثل بما جعلهم مجردين من أى ساتر فأصبح أمرهم فى السر كأمرهم فى الجهر وماذا يكون موقف المنافق عندما ينكشف أمره للناس؟[١]

لقد كان المثل ولازال ولا يزال فى قمة الروعة من التصوير وفى ذروة السنام من التوضيح.

وحقا: "لضرب الأمثال شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيات المعانى ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد وفيه تبكيت للخصم الألد وقمع لسورة الجامح الأبى"[٢].

وإلى حديث عن المثل الثانى وهو متصل بالأول من كل الجوانب فقد جاء عقبه فى ترتيب الآيات وتحدث عن النفاق والمنافقين بما يضيف جديدا وهذا من عظمة أسلوب القرآن فالموضوع واحد والأسلوب متنوع والفكرة واحدة ولكن الحديث عنها

١- موسوعة الأمثال ٣١٠/١.

٢- تفسير الكشاف ٧٢/١.

متشعب والمظهر يوحى بالتكرار ولكن ما يقال هنا لا يقال هناك وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن الكريم.

المثل الثانى من مثلى المنافقين:

قوله تعالى: "أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق......... إلى قوله تعالى: "إن الله على كل شىء قدير" [سورة البقرة/١٩، ٢٠].

ثنى الله -عز وجل- بتمثيل آخر فى شأن المنافقين ليكون كشفا لحالهم بعد كشف وإيضاحا بعد إيضاح لأن المقام مقام تفصيل يقتضى الإشباع للكشف عن خصال هؤلاء المنافقين وتجلية حقيقة أمرهم لأن المنافقين أخطر على قضية الإيمان من الكافرين... ذلك أن الكافر معروف عداؤه بالنسبة لقضية الإيمان وهو يجاهر بهذه العداوة لذلك فإن المؤمنين يأخذون حذرهم منه ويواجهونه وهذه العداوة المسبقة تجعل كل ما يصدر عنه مرفوضا... أما المنافق فهو يظهر المودة ويخفى العداوة ولذلك فإن المؤمنين يظنونه واحدا منهم فلا يأخذون حذرهم منه ولا ينظرون إلى ما يقول على أساس أنه عدو الله.... وفى هذه الحالة فهم يأمنون ويمكن أن يستغل هو هذا الأمان فى أن يطعن فى قضية الدين ويشكك فيها ويجد آذانا تسمعه فخطورة المنافق ليست فى أن ذاته خطرة أو لأن ذاته قوية بل لأن

غيره ينخدع فيه ولذلك ثنى الله -عز وجل- بهذا التمثيل فقال: "أو كصيب من السماء....إلخ.

وقد أوثر فى عطف أحد التمثيلين على الآخر التعبير بالحرف "أو" دون "الواو" للدلالة -ولله العلم- على صحة التشبيه بكل واحدة من القصتين منفردة وبهما معا. ولو عطف "بالواو" لربما أوهم صحة التشبيه بمجموعهما فقط دون التشبيه بكل واحدة منهما منفردة فالعطف بـ "أو" جعل القصتين سواء فى استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيتهما مثلت فأنت مصيب وإن مثلت بهما جميعا فأنت مصيب أيضا أى إن مثلتموهم بالمستوقد فذلك مثلهم وإن مثلتموهم بالصيب فهو لهم مثل أو مثلتموهم بهما جميعا فهما مثلاهم فالتمثيل مباح لكم فيهم[١].

ومرجع ذلك إلى أن "الواو" لمطلق الجمع و"أو" للدلالة على التسوية (الإباحة) والتمثيل هنا أيضا من قبيل التمثيلات المركبة كالتمثيل السابق لأن المراد -ولله العلم- تشبيه هيئة حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وامتزجت حتى صارت شيئا واحدا بهيئة أخرى فقد مثلت حالة المنافقين وهم يتخبطون فى الضلال وقد أصابتهم الحيرة والدهشة واشتد عليهم الأمر بحال من يكابد فى ظلمة

١- الجمان فى تشبيهات القرآن /٦٩.

الليل وقد أطفئت ناره بعد إيقادها ثم مثلت هنا فى هذا التشبيه بحال من أخذتهم السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق فأخذوا يمشون كلما أضاء لهم البرق ويقفون حينما ينطفىء ضوؤه ووجه الشبه هنا: الهيئة الحاصلة من صورة قوم تملكهم الفزع وقد عرضت لهم أسباب الهداية فانتفعوا بها قليلا ثم ما لبثوا أن أحاط بهم الضلال.

"وقد جاء هذا المثل رادفا للمثل الأول "كمثل الذى استوقد نارا...." وهو من الباب الذى ينتقل فيه الكلام من تشبيه إلى تشبيه وهو قليل من القرآن كثير من الشعر الجاهلى وخاصة فى الصور المتسعة المتحركة فى أوصاف الناقة أو حمار الوحشى أو غير ذلك"[١].

وفى إيثار التعبير بكلمة "صيب" دون المطر أو الوابل وتنكيرها دلالة على التنويع والتهويل لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل يصيبهم[٢] وكأن لفظ "صيب" يصور صورة الانصباب عليهم تهويلا وتفظيعا ثم ذكر جهة الانصباب "من السماء" والصيب لا يكون إلا من جهتها مبالغة فى التهويل وزيادة بيان المعنى وتصويره

١- دراسة فى البلاغة والشعر /٣١.

٢- إرشاد العقل السليم ٦٤/١.

وتربيته فى القلب وتجسده فى الخيال كما فى قوله تعالى: "فخر عليهم السقف من فوقهم" [سورة النحل/٢٦] وخرور السقف لا يكون إلا من فوق.

ومجيء لفظ "السماء" معرفة يدل على أن "الصيب" يصيبهم من غمام مطبق آخذ بآفاق السماء وليس يتصوب من أفق واحد من بين سائر الآفاق لأن كل أفق من آفاقها سماء فالصيب يطبق عليهم من جميع الآفاق[١].

ثم نكرت هذه الألفاظ "ظلمات ورعد[٢] وبرق[٣]" للدلالة على أنها أنواع لا تدرك ولا يحاط بها وكذلك جمعت "الظلمات" للدلالة على تكاثفها وتراكمها وتعدد الدجى وقت انصباب الماء لأنها ظلمات تكونت من ظلمة الليل وظلمة إظلال الغمام وظلمة تكاثف المطر وانتساجه بتتابع القطر فهى ظلمات تراكم بعضها فوق بعض ولذا جمع لفظ "ظلمات" وأفرد لفظى "رعد وبرق" إذ ليس فيهما ما فى

١- إرشاد العقل السليم ١/٦٤.

٢- الرعد: هو الصوت الذى يحدث بعد ظهور البرق.

٣- البرق هو: الضوء اللامع السريع الظهور والاختفاء وهو ناشىء عن التقاء تيارين كهربيين سالب وموجب يتولد من لقائهما شرارة نارية تحدث هذا الضوء وفى الوقت نفسه تحرق الهواء الذى فى دائرتها ثم يندفع الهواء من كل جانب ليملأ هذا الفراغ فيحدث الصوت الذى هو الرعد.

"الظلمات" من التكاثف والتراكم والتداخل وقد يكون السر فى إفراد لفظى الرعد والبرق هو: أن "النور" لما لم يجمع فى آية من القرآن الكريم .... لم يجمع البرق إذ ليس بالبعيد عنه كما يرشدك إليه "كلما أضاء لهم" والرعد مصاحب له فانعكست أشعته عليه أو لأن الأصل فى المصدر ألا يجمع لأنه لو جمع لدل ظاهرا على تعدد الأنواع كما فى المعطوف عليه وكل من الرعد والبرق نوع واحد[١].

وهكذا يتضح لنا ما فى التعبير من مبالغات فى التصوير تبعث الهول وتثير الرعب والخوف ولا يجد المنافقون ما يتقون به هذه الأهوال إلا أن يجعلوا أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت.

قالوا: إن المراد بقوله تعالى: "أو كصيب": أو كمثل ذوى صيب[٢] فحذف المضاف والذى أحوج إلى هذا التقدير أن المعنى على تصوير حال المنافقين بحال قوم أخذتهم السماء على الصفة المذكورة فلقوا منها ما لقوا.

وهذا يختلف عن تشبيه أعمال الكفار فى قوله تعالى: "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم

١- روح المعانى ١٧٢/١.

٢- إرشاد العقل السليم ٦٣/١.

يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب....." [سورة النور/٣٩، ٤٠] لأن التشبيه فى [سورة النور] تشبيه لأعمال الكفار ولذا لم يحتج إلى تقدير فى التشبيه الثانى (أو كظلمات فى بحر لجى...إلخ) أما التشبيه فى (سورة البقرة) فهو تشبيه لأحوال المنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدى بحال من أخذتهم السماء....إلخ ولذا احتاج المعنى إلى تقدير مضاف فى التشبيه الثانى "أو كصيب من السماء....إلخ ومما يؤيد ذلك أننا إذا تأملنا كلمات تشبيه (سورة البقرة): "يجعلون.. أصابعهم.. آذانهم.. أبصارهم.. لهم.. مشوا.. قاموا.. سمعهم.. أبصارهم.." نجد أن الضمير العائد على الجماعة الإنسانية الضالة منبثا فى الكلام كله والأحداث والأحوال منسوجة عليه وليس الأمر كذلك فى [سورة النور][1].

وفصل قوله تعالى: "يجعلون أصابعهم فى آذانهم" عما قبله لشبه كمال الاتصال المسمى بالاستئناف البيانى لأنه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهول من الظلمات والرعد والبرق فكأن سائلا سأل: فكيف كانت حالهم مع هذه الأهوال؟ فجاء الجواب: "يجعلون أصابعهم فى آذانهم".

---

[1]- دراسة فى البلاغة والشعر /٣٦، وبلاغة تطبيقية/٥٦.

وفى "أصابعهم" مجاز مرسل علاقته الكلية حيث أطلق "الأصابع" وأراد "الأنامل" وذلك للمبالغة فى سد الآذان على غير المعتاد مبالغة فى الفرار من الخوف والرعب من شدة الصوت[1] ومن المعلوم أن الذى يسد الأذن أصبع خاصة هى السبابة ولكنه عدل عنها وذكر الاسم العام "الأصابع" لغرضين:

الأول: أن السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن ولذا فقد استبشعوها وكنوا عنها بالمسبحة والسباحة والمهللة[2].

الثانى: أنه لا يلزم أن يسدوا مسامعهم فى تلك الحال بالسبابة لأنهم فى حال حيرة ودهشة فأى إصبع اتفق لهم أن يسدوا بها فعلوا دون مراعاة المعتاد فى ذلك إذ المقام مقام حيرة ودهشة[3].

وفى ذكر الصواعق و الحذر من الموت فى قوله تعالى: "من الصواعق حذر الموت" تعليلا لجعل الأصابع فى الآذان مما يدل على شدة الهول وفرط الرعب والخوف.

وقد جاء هذا المجاز فى موضع آخر من القرآن الكريم حكاية قول سيدنا نوح -عليه السلام- يشكو قومه إلى ربه "وإنى كلما

١- الفتوحات الإلهية ٢٣/١.

٢- تفسير الكشاف ٨٤/١،٨٥.

٣- إرشاد العقل السليم ٦٥/١ وروح المعانى ١٧٣/١.

دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا" [سورة نوح/٧].

بيد أن المقام مختلف فما فى سورة البقرة كان المقام مقام خوف وفرار من الهلاك المتوقع وقد بين ذلك الخوف قوله تعالى: "من الصواعق حذر الموت".

والمقام فى سورة نوح مقام عناد ونفور عن سماع دعوة الحق وقد بين هذا العناد والنفور قوله تعالى: "واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا" وفى قوله تعالى "واستغشوا ثيابهم" كناية عن صرف أبصارهم عنه حتى لا يبصروه فكما وضعوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوه جعلوا ثيابهم أغشية على أعينهم لئلا يبصروه وهو كناية عن صفة.

كما جعلوا أصابعهم فى آذانهم كناية عن صرف أسماعهم عنه حتى لا يسمعوه وكان المجاز المرسل فيها من حيث إطلاق الأصابع على البعض.

وكذلك يمكن حمل الكناية الثانية على المجاز المرسل لأنهم استغشوا جزء ثيابهم لا كلها.

فقد اجتمع فى هذين التعبيرين الكناية -وهى واسطة بين الحقيقة والمجاز- ثم المجاز المرسل.

وقوله تعالى: "والله محيط بالكافرين" جملة اعتراضية الغرض منها: التنبيه على أن الحذر من الموت لا يفيد لأن الله -عز وجل- محيط بهم وفيها تسلية للنبى -ﷺ-[1] وقد وضع الاسم الظاهر "الكافرين" موضع الضمير إذ الأصل: "والله محيط بهم" وذلك للدلالة على أن أصحاب الصيب كفار فيظهر عندئذ استحقاقهم ما وصف من شدة الأهوال وفرط الرعب لأن الإهلاك الناشىء عن السخط أشد.

وجعل بعضهم هذه الجملة الاعتراضية من أحوال المشبه على أن المراد بالكافرين: المنافقون وهى تدل على أنه لا مدفع لهم من عذاب الله فى الدنيا والآخرة وقد وسطت بين أحوال المشبه به تنبيها على شدة الاتصال بينهما ودلالة على فرط الاهتمام بشأن المشبه[2].

وإحاطة الله -عز وجل- بالكافرين مجاز إما استعارة تبعية فى لفظ "محيط" حيث شبه شمول قدرته -تعالى- إياهم بإحاطة المحيط بما أحاط به ووجه الشبه: امتناع الفوت فى كل واشتق من الإحاطة محيط بمعنى: شامل القدرة[3].

١- حاشية العلامة الصاوى ١٣/١.

٢- بلاغة تطبيقية /٥٧.

٣- الفتوحات الإلهية ٢٤/١.

وإما استعارة تمثيلية حيث شبهت حاله -عز وجل- معهم وقدرته عليهم بحال المحيط مع المحاط به أى: شبه هيئة منتزعة من عدة أمور بأخرى مثلها واستعيرت هيئة المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية[١]. فقد صور المعقول بالمحسوس لتقريره وسرعة تصوره.

وفصل قوله تعالى: "يكاد البرق يخطف أبصارهم" عما قبله للاستئناف البيانى وكأن سائلا سأل: فكيف كانت حالهم مع هذه الأهوال ومع مثل ذلك البرق؟ فأجيب: "يكاد البرق يخطف أبصارهم". وكذا الفصل بين جملتى: "يكاد البرق يخطف أبصارهم" و"كلما أضاء لهم مشوا فيه.." لأن الأولى منهما تضمنت سؤالا فحواه: كيف يصنعون فى حال خفوق البرق وفى حال اختفائه؟ فأجيب: "كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا..." ولما كان البرق غير دائم الظهور وإنما هو يلمع ثم يختفى فيعود لامعا كان المسند إليه "يخطف" مناسبا أيما مناسبة لظهوره السريع واختفائه الأسرع لأن الخاطف دأبه دائما أن يقفز فيخطف ثم يسرع مدبرا.

ولا خطف هنا على الحقيقة ولذلك كانت "يكاد" مفتاح تصور الحدث كما هو فى الواقع نافية عنه كل مظنات الغلو البغيض.

١- إرشاد العقل السليم ٦٥/١،٦٦ وروح المعانى ١٧٤/١.

والتعبير -بعد- من المجاز إذ هو استعارة تصريحية تبعية شبه فيها أثر البرق على أبصارهم من الضعف والكلال بـ "الخطف" والجامع ما يترتب على كل من إزالة ما يترتب على الشيء موجودا والقرينة استحالة وقوع خطف من البرق.

وإسناد الخطف إلى البرق مجاز عقلى علاقته السببية لأن المزيل الحقيقى لأبصارهم هو الله -عز وجل- والبرق سبب.

وسره البلاغى -ولله العلم- فى الموضعين: إبراز المعنوى فى صورة المحسوس للإيضاح والتقرير هذا فى تشبيه الإزالة بالخطف لأن الخطف يفيد نزع الأبصار نفسها من أماكنها وتركها بلا آلة بصر.

أما الإزالة فقد يقف معناها عند سلب الأثر وهو الإبصار دون آلته. وفى المجاز العقلى صار البرق عدوا لهذا الفريق ذا إرادة وتدبير وتربص يتحين الفرص ثم يقفز فى حركة سريعة وينزع أبصارهم من أماكنها ثم يولى وأين لهم أن يطلبوه وهم لا يبصرونه ولا يعرفون طريقه هو فى السماء وهم على الأرض[١].

ووراء التعبير بكلمتى "كلما" و"قاموا" معنى لطيف وتصوير دقيق فمع أن البرق يكاد يخطف أبصارهم إلا أنهم يحاولون ولديهم

---

[١]- خصائص التعبير القرآنى ٢/٣٤١،٣٤٢.

رغبة قوية فى التخلص من هذا الموقف الصعب فكلما أضاء البرق لهم ممشى مشوا فيه مع خطورة المشى ولذا لم يقل: "سعوا فيه" أو "عدوا فيه" لأنهم يخطون فى حذر من تخطف أبصارهم والسعى والعدو لا يناسب كل منهما مقام الحذر وإذا أظلم عليهم قاموا واستعدوا للانطلاقة عندما تحين الفرصة ففى القيام تأهب وتهيؤ.

والفعل "أضاء" إما متعد حذف مفعوله والتقدير: كلما أضاء لهم ممشى مشوا فيه وإما لازم بمعنى "لمع" وكذا الفعل "أظلم" إما متعد والتقدير: أظلم عليهم مكانهم وإما غير متعد وهو الظاهر.

واستخدام "كلما" مع الإضاءة يشعر بحرصهم على المشى ورغبتهم فى الإفلات من هذا الموقف الصعب فكلما صادفوا فرصة انتهزوها وليس كذلك التوقف عند الإظلام ولذا استخدم معه "إذا" ثم قال: "قاموا" فدل على تأهبهم وتهيئهم للوثبة الجديدة عندما تحين فرصتها وهذا يجعلها أولى بالسياق من "وقفوا" لأن "قام" تدل على الوقوف والثبوت مع تحفز وتأهب كما يقال: قامت الحرب على ساقها دون: وقفت الحرب على ساقها لأن فى الوقوف جمود وسكون.

وقد يكون السر فى أنه أتى قبل "أضاء" بـ "كلما" وقبل "أظلم" بـ "إذا" هو -ولله العلم-: أن تكرار الإضاءة يستلزم تكرار الإظلام فكان تنويع الكلام أعذب أو أن مراتب الإضاءة مختلفة متنوعة فذكر

"كلما" تنبيها على ظهور التعدد وقوته لوجوده بالصورة والنوعية والإظلام نوع واحد فلم يؤت بصيغة التكرار لضعف التعدد فيه[1].

وفى قوله تعالى: "ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم" حذف مفعول المشيئة لدلالة جواب الشرط عليه والمعنى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ولكن الله -عز وجل- لم يشأ أن يذهب بها ليظلوا -ولله العلم- يعانون الهول والعذاب لأن هذه الحواس لو بطلت لذهب عنهم والسر البلاغى لهذا الحذف هو -والله أعلم- البيان بعد الإبهام وللبيان بعد الإبهام أثر طيب ووقع فى النفس لأن الشىء عندما يبهم تتطلع النفس وتتشوق إلى معرفته فعندما يجىء البيان يقع فى النفس موقعه إذ جاءها وهى متطلعة إليه مترقبة له.

وقد كثر حذف مفعول المشيئة والإرادة فلا يكاد يذكر إلا إذا كان غريبا كما فى قوله تعالى: "لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين" [سورة الأنبياء/١٧] وقوله -عز وجل-: "لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء" [سورة الزمر/٤] وكما فى قول ابن يعقوب اسحاق بن حسان الخذيمى يرثى أبا الهيذام عامر بن عمار أمير عرب الشام:

١- وهناك وجوه أخرى ذكرها الزركشى فى البرهان فلتراجع فى ٤/٢٠٤-٢٠٦.

ملكت دموع العين حين رددتها   إلى ناظرى والعين كالقلب تدمع

ولو شـئت أن أبكى دما لبكيته   عليه ولكن ساحة الصبر أوسـع[١]

فإن اتخاذ اللهو والولد وبكاء الدم مما يستغرب ولذا لزم ذكره والتصريح به اعتناء بشأنه ولا يكتفى فيه بدلالة الجواب عليه لذهاب الوهم إلى غيره بناء على استبعاد تعلق الفعل به عندئذ لغرابته[٢].

وفى قوله تعالى: "لذهب بسمعهم" مجاز لغوى حقيقته لأزال سمعهم وأبصارهم وسره البلاغى –ولله العلم– فوق إبراز المعقول فى صورة المحسوس تسجيل الشقاء عليهم واستمرارهم فى تلك الخطوب الأليمة.

لأن الذهاب هنا فيه معنى الإمساك بالشىء المذهوب وفيه معنى المصاحبة على حد قولهم: ذهب السلطان بماله –لأنه أبلغ من "أذهب السلطان ماله" ومن "ذهب ماله" لما فى الصورة الأولى من الإمساك والاستصحاب.

وهذا المجاز صنو المجاز السابق "يكاد البرق يخطف أبصارهم" ولكننا إذا قارنا بينهما ظهرت لنا دقة التعبير فى القرآن الكريم عجيبة عاجبة:

١- مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ٨٧/١.

٢- بلاغة تطبيقية /٥٩،٦٠.

فى جانب "البرق" كان اللفظ المستعار "الخطف" المفهوم من الفعل "يخطف" وفى جانب "الله" -عز وجل- كان المستعار "الذهاب" المفهوم من الفعل "لذهب" والسر فى اختلاف لفظى المستعار عجيب.

لأن مفهوم "الخطف" أن يكون هناك تربص وترقب للفرصة. فإذا ما سنحت كانت الحركة السريعة فى الانقضاض للخطف ولابد للخاطف من التولى السريع ناجيا بنفسه وبما خطف والخاطف خائف وجل.

أما الذهاب فى "لذهب" فلا يقتضى شيئا من ذلك فالآخذ الذاهب قد يكون أخذه على سبيل القوة والاستعلاء -كما هنا- فلا تربص ولا ترقب ولا تحين فرصة ولا انقضاض ولا فرار خشية اللحاق ولا طلب يتوقع من المأخوذ منه لأن الآخذ قادر قوى والمأخوذ منه عاجز ضعيف ولأنه لا حول له ولا قوة يعصمانه من حول وقوة الله -عز وجل- لهذه الاعتبارات -والله أعلم- كان اختلاف لفظى المجاز كل واقع موقعه لاناب ولا مستكره ولا وقوع فى مخالفة حس أو شرع[1].

وفى إفراد "السمع" وجمع "الأبصار" دلالة على التفنن فى القول وإشارة إلى أن مدركات السمع نوع واحد وأن مدركات

---

[1]- خصائص التعبير القرآنى ٢/٣٤٤،٣٤٥.

الأبصار أنواع مختلفة ويضاف إلى ذلك أيضا أن "السمع" فـي أصلـه مصدر والمصادر لا تجمع وختام الآية الكريمة بقوله تعالى: "إن الله على كل شيء قدير" يتناسب مع ما ذكر في الآيات من تصوير لحال المعاندين وما يصيبهم من شدة الهول وفرط الرعب لكفرهم وعنادهم وهذا ما يعرف بتشابه الأطراف[١].

وقد وضـع الاسم الظاهر "لفظ الجلالـة" موضـع الضمـير إذ الأصل أن يقال: إنه على كل شيء قدير لتقدم ذكره -عز وجل- في قوله: "ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم" والسر البلاغي وراء هذا العدول هو -ولله العلم- تربية المهابة وإبراز القـدرة بالإسناد إلى صريح الاسم الجليل إذ ليس الإسـناد إلـى الضمـير كالإسناد إلى الاسم الظاهر.

---

[١]- وهو من الضرب الذى يرجع إلى المحسنات المعنوية وهو أيضا نوع خاص من مراعاة النظير وحده: أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعنـى كقولـه تعالى: "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير" [سورة الأنعام/١٠٣] فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر والخبرة تناسب من يدرك شيئا فإن من يدرك شيئا يكون خبيرا به. ومعلوم أن تشابه الأطراف هو: أن يجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه سواء كان أحدهما فى الختم والآخر فى الابتداء كما فى تشابه الأطراف أو كانا معا فى الابتداء أو فى الاختتام أم فى الوسط (الإيضاح ٦/٢١،٢٢).

ويعلق المرحوم الأستاذ/ سيد قطب على هذا المثل القرآنى بقوله:

إنه مشهد عجيب حافل بالحركة مشوب بالاضطراب فيه تيه وضلال وفيه هول ورعب وفيه فزع وحيرة وفيه أضواء وأصداء.... صيب من السماء هاطل غزير فيه ظلمات ورعد وبرق كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا -أى وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون وهم مفزعون: "يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت" إن الحركة التى تغمر المشهد كله من الصيب الهاطل إلى الظلمات والرعد والبرق إلى الحائرين المفزعين فيه إلى الخطوات المروعة الوجلة التى تقف عندما يخيم الظلام إن هذه الحركة فى المشهد لترسم -عن طريق التأثر الإيحائى- حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التى يعيش فيها أولئك المنافقون.... بين لقائهم للمؤمنين وعودتهم للشياطين بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام فهو مشهد حسى رمز لحركة نفسية ويجسم صورة شعورية وهو طرف من طريقة القرآن الكريم العجيبة فى تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس"[١].

١- فى ظلال القرآن ٤٦/١.

ونسأل كما سأل المفسرون من قبلنا: أى التمثيلين أبلغ؟ قال الزمخشرى -رحمه الله-: إن التمثيل الثانى "أو كصيب....إلخ أبلغ من التمثيل الأول: "مثلهم كمثل الذى استوقد نارا...إلخ.

لأن الثانى أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذا أخروهم يتدرجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ[١] وهذا الجواب نفسه أجاب به الرازى[٢] -رحمه الله- ومرجع ذلك إلى تضاعف العناصر التى تصور الحيرة والشدة من الصيب والظلمات والرعد والبرق الذى يكاد يخطف الأبصار والصواعق المخيفة ثم تأمل الإشارات اللغوية ذات الدلالة المتسعة على الأحوال النفسية تأمل: "يجعلون أصابعهم" والأصل أناملهم وقد دل هذا على أن القوم انخلعت قلوبهم وطاشت من هول المخافة لأنهم صاروا فى فم الموت ثم تأمل كلمة "الخطف" وما فيها من حدة وشراسة وقسوة وتأمل: "كلما أضاء لهم مشوا" وكيف كانوا قائمين وهم خائفون يترصدون شعاعا من الضوء ليفلتوا من هول الهلاك..[٣].

أما المثل الأول: "مثلهم كمثل الذى استوقد نارا...إلخ فليس

١- تفسير الكشاف ٨١/١.

٢- مفاتيح الغيب ٤٥٩/١.

٣- دراسة فى البلاغة والشعر /٣٧.

فيه إلا المستوقد وحالته المخذولة من حيث تراه يكدح حتى يستخرج نارا أى نار تقطع هذه الوحشة المطبقة على النفس حتى إذا أضاءت ما حوله وآتاه الهدى ضربه الخذلان وذهب الله -عز وجل- بهذا النور وبقى مغروسا فى جوف الظلمات.

ويشترك المثلان فى أن صور التشبيه التى تضمنها كل منهما تكشف اللثام عن وجه الحقيقة بما لا يدع لمرتاب أن ينكرها.

ويوضح الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى السر فى اختلاف المثلين بقوله:

"اختلف المثلان فى سورة البقرة وقد ضربا لجماعة واحدة هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى ويبدو أن المثل الأول: تصوير لضلالة أهل الضلالة حين لا يخوضون صراعا مع الحق وأهله يعنى تصويرا لضلالهم فى أنفسهم من غير أن تحتشد هذه النفوس لمواجهة الحق.

والمثل الثانى: تصوير لضلالتهم وقد خاضوا المواجهة مع أهل الحق وهذه الحركة وتلك الأحداث وهذا الصراع القائم بينهم وبين الطبيعة "الصيب والظلمات والرعد والبرق الذى يخطف أبصارهم" رمز لهذا الصراع الذى يخوضونه مع أهل الحق ولا تجد شيئا من هذا فى المثل الأول وإنما تجد رجلا يستوقد نارا ثم تنطفىء ويبقى فى ظلماته من غير أن يكون حوله رعد وبرق يخطف

أبصاره ومن غير أن ينخلع قلبه من هول المخافة فيضع أصابعه فى أذنه... وهكذا نجد الأمثال تتقارب وتتنوع وتتفق وتختلف"[١].

هذا: وعندما ندقق فى ألفاظ المثلين نجد أن كل لفظ عبر به فيهما لا يصلح مكانه غيره كما نجد تناسق الكلمات حتى أصبحت هذه العبارات الفخمة التى صورت الخفى فى صورة الجلى والمعنوى فى صورة الحسي ومع تكرار الوصف للموصوف الواحد لا نرى تكرارا ولا مشابهة فها هو المثل الثانى صور المنافقين بصورة غير صورة المثل الأول ومع ذلك لا نحس بشيء مكرر وبالتالى تزيد الصورة وضوحا وتزداد إشراقا وكيف لا؟ والقرآن الكريم هو الذى يرسم وهو الذى يصور لأنه الكتاب الخالد الذى أنزله رب العالمين على خاتم المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ[٢].

فلو اجتمع أدباء الأرض قاطبة بما أوتوا من قدرة على الإبداع والتصوير والتخيل كى يرسموا صورة دقيقة للحيرة والضياع والقلق والخوف والفزع الذى يستشعره المنافق فى كل حى لعجزوا عما بلغه هذا المثل القرآنى الذى يعد مشهدا من مشاهد الفزع

١- دراسة فى البلاغة والشعر /٣٨ وراجع: التصوير البيانى/ ٨٨،٨٩.

٢- موسوعة الأمثال القرآنية ٣٢٢/١.

المزدحمة بالحركة والاضطراب والأصباغ والألوان[١].

وجدير بالذكر أننا عندما نقول: إن هذا التشبيه أبلغ من ذاك فإننا نريد: المبالغة أى أن كلمة "أبلغ" مأخوذة من المبالغة لا من البلاغة والمقام هو الذى يقتضى تلك المبالغة -وكما قال الزمخشرى-رحمه الله- هم يتدرجون فى مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ- حيث اقتضى المقام ذلك التدرج.

وبعد:

فهذا المثل يؤكد أن القرآن الكريم عندما يصور المعنوى فى قالب حسي يورد صورا مألوفة مشاهدة ليس فى البيئة التى نزل القرآن الكريم فيها وإنما هى صورة معروفة على مر العصور وإن كانت منتزعة من البيئة البدوية فالظلمات والرعد والبرق ظواهر طبيعية تصحب نزول المطر وكلها منتزعة من البيئة البدوية ليتم الإيضاح وهى ظواهر لا يجهلها أحد فيها بساطة وواقعية وتلك سمة فى تمثيلات القرآن الكريم كما أن المشهد الكلى -فى هذا المثل- بما يرسمه من ألوان وما يشع فيه من حركات وما يصحبه من أهوال وظلمات ليتفق تماما مع حياة المنافقين ويصور واقعهم النفسى وتقلبهم بين الكفر والإيمان والهدى والضلال وارتباطهم العضوى

١- من بدائع النظم القرآنى ١/١٣٠.

بشياطينهم وخداعهم فى حركاتهم متمثلا فى التجائهم إلى النور ثم رجوعهم إلى الكفر.

وفى هذا المثل أيضا لمحة ولمسة اجتماعية رائعة تفيدنا فى بناء مجتمعاتنا لأن هذا الوصف يعطينا صورة حية عن أطماع المنافقين وأنهم نفعيون أنانيون[١].

مثل الحياة الدنيا

قال تعالى: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" [سورة يونس/٢٤].

وقال تعالى: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا" [سورة الكهف/٤٥].

وقال عز وجل: "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب

---

[١]- موسوعة الأمثال القرآنية ٣٢٨،٣٢٧/١.

الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" [سورة الحديد/٢٠].

لقد صور هذا النظم القرآنى حال الحياة الدنيا وما فيها من بهجة وزينة وزخرف ومتاع ثم لا تلبث هذه الدنيا أن تزول وكأن شيئا لم يكن بحال ماء ينزل من السماء ليختلط به نبات الأرض فيزهو النبات وتتزين به الأرض ويطمئن الناس إلى دنو ثمرته وسلامته من الجوائح فتذهب نضرته فجأة ويصير هشيما!!

ووجه الشبه هو: الهيئة الحاصلة من سرعة الزوال وانقراض النعيم بعد الإقبال وعموم النفع واغترار الناس به واعتمادهم عليه!

ومع اشتراك هذه الآيات الكريمة فى هذا التمثيل إلا أن لكل مثل مزايا وخصائص تجعله مستقلا بنفسه -كما جاء فى القرآن الكريم- بحيث لا يغنى مثل عن آخر ولا يؤدى مؤداه وبيان ذلك:

أولاً: مثل الحياة الدنيا فى [سورة يونس]:

هذه الآية الكريمة اشتملت فى جانب المشبه به على عشر جمل كل جملة منها تفيد وصفا لا تفيده الأخرى وقد تضامت هذه الأوصاف وتلاحمت لأداء الشبه بين الطرفين بحيث لو حذفت منها

جملة لأخل ذلك الحذف بـالغرض المقصـود مـن الآيـة[1] وهـو -ولله العلم- بيان أن هذه الحياة الدنيا وقد من الله -عز وجل- على النـاس فيها بنعمة الوجود والحياة ومكنهم من استثمار ما فيهـا مـن خـيرات ينعمون بها هم وما يتبعهم من وسـائل رحيلهـم وانتقـالهم وآتـاهم مـن العلم حتى ألهاهم هذا الاقتدار وصرفتهم تلك البهجة عن التفكير فـى المصير وخالوا أنفسهم أنهم ملكوا ناصية الأرض وأن فى قدرتهم أن يعمروا السماء ويمتلكوا الأفـلاك -هـذه الحيـاة لا بقـاء لهـا ولا دوام فسيجيئوها قدر الله بغتة ويذهب بما شادوا وأسسوا ويصبح ما كـانوا فيه كأن لم يكن وهذا الغرض لا يحققه إلا مجمـوع مـا اشتمل عليـه المشبه به من جمل فكل جملة فيها أعطت وصفا نحن فى حاجة إليـه لفهم الشبه تاما بين الطرفين[2].

وبالتأمل فى هذا المثل نجد:

١- أنه قد ابتدأ بقوله تعالى: "إنما" لوجوده فيما للصـورة كبير تعلـق به فى قصة ركاب السفينة فى قوله تعـالى: "يا أيهـا النـاس إنمـا بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا...." [سورة يونس/٢٣].

فإذا ما كان بغى بعض الناس على بعض لتحقيق متعة مـن متـع

١- راجع: أسرار البلاغة/١٠٩.

٢- الإفصاح/٩٩.

الحياة الدنيا فليضرب القرآن الكريم مثلا يوضح حقارة هذه الدنيا فكان قوله تعالى: "إنما مثل الحياة.....إلخ" على سبيل الاستئناف لبيان حال الدنيا وسرعة تقضيها.

٢- المشبه به حال النبات إلا أن أداة التشبيه "الكاف" قد دخلت على ما له دخل أو أثر فى المشبه به وهو لفظ "ماء" وقد جاء هذا اللفظ منكرا للدلالة على ما للماء من أثر عظيم فى حياة النبات بل فى حياة كل حى وصدق الله العظيم إذ يقول "وجعلنا من الماء كل شيء حى" [سورة الأنبياء/٣٠]. وقد جاء لفظ "مثل" مع المشبه كما يدل على أن أصل الحياة جاء من السماء وعوامل استمرارها خلقها الله -عز وجل- ووضعها فى الأرض.

٣- وصف الماء بأنه نازل من السماء "كماء أنزلناه من السماء" لأن صلاح النبات يكون بالماء العذب ومعلوم أن ماء المطر لا يكون إلا عذبا فراتا.

٤- جاء قوله تعالى: "فاختلط به نبات الأرض" بهذه الصورة ولم يأت على أصل المعنى "اختلط الماء بنبات الأرض" للدلالة - ولله العلم- على قدرة الله -عز وجل- فى خلق النبات حيث زوده بجذور رفيعة تضرب فى الأرض لتمتص الماء من التربة ثم تدفع به إلى مصانع الغذاء فى الأوراق فيحدث ما يسمى

بالتمثيل الضوئى. "فاختلط" فى النظم الكريم بمعنى "نفع" أى نفع الماء النبات وعلى هذا فإسناد "اختلط" إلى "النبات" إسناد مجازى علاقته السببية ويمكن أن يفهم من كلام الزمخشرى[1] فى تفسير هذا النظم الكريم "فاختلط به نبات الأرض" معنى آخر -بجانب المعنى المجازى- وهو: المعنى الحقيقى وعليه يكون المراد من قوله تعالى: "فاختلط به نبات الأرض" أى تداخلت أغصان النبات فالتفت وتكاثفت بسبب وفرة الماء وجودة الأرض وعلى هذا فإسناد "اختلط" إلى "نبات" إسناد الفعل لما هو له (أى إسناد حقيقى).

٥- الاستعارة المكنية فى قوله تعالى: "أخذت الأرض زخرفها وازينت" حيث صور هذا النظم الكريم الأرض بصورة عروس كما صور النبات بصورة الزينة وقد تناولت تلك العروس الزينة بيديها لتضعها حيثما تريد مما يبرز محاسنها ومفاتنها للناظرين فتخلب منهم القلوب والألباب...[2]

فقد خلعت الاستعارة على الأرض الجامدة صفة الحياة فرأيناها تتحرك وتمتد يداها إلى الزخرف والزينة وتأخذ مما شاء لها الله

---

[1]- تفسير الكشاف ٢/٧٢٥.

[2]- المصدر السابق ٢/٣٤٠ ومفاتيح الغيب ٨/٣٣٢.

-عز وجل- من أصباغ لتضعه فوق ظهرها ليفتتن به قصار النظر من الناس.

٦- الكناية فى قوله -عز وجل- "وظن أهلها أنهم قادرون عليها" عن تمام التطور والوصول إلى أكمل غاية فى التقدم البشرى ويظن أولو التطور والتقدم من الناس أن الأرض أصبحت تأتمر بأمرهم وطوع إرادتهم فيفاجئون بما لم يكونوا يحتسبون.

٧- صور هذا النظم الكريم ازدهار الحياة حين ينزل الماء من السماء فيختلط به نبات الأرض....إلخ وطوى وصف الدنيا واللعب والزينة ولم ينص على أنها موضع المباهاة بالأموال والتكاثر بالأولاد كما فى (آية الحديد)[١].

٨- الإشارة إلى مرحلة من المراحل التى يمر بها نبات الأرض فى حالة نزول الكوارث وذلك فى قوله تعالى: "أتاها أمرنا ليلا أو نهارا" وعلى إبقاء حرف العطف "أو" على أصل معناه وهو الإبهام يكون المراد مجيء ذلك الأمر بغتة فى غفلة من الزراع فى لحظة من لحظات الليل أو فى لحظة من لحظات النهار وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: "أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا

١- البيان القرآنى/٩٩، ١٠٠.

ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون" [سورة الأعراف/٩٧،٩٩].

ولعل المراد كما يقول الألوسى: إنه لا فرق فى إتيان الهلاك بين زمن غفلتهم وزمن يقظتهم إذ لا يمنع منه مانع ولا يدفع عنه دافع[١] وتلك هى المفاجأة التى غفلوا عنها.

أما على أن "أو" العاطفة بمعنى "الواو" كما يذهب إلى ذلك بعض الكوفيين كما فى قوله تعالى "لعله يتذكر أو يخشى" [سورة طه/٤٤] فهو بمعنى: لعله يتذكر ويخشى[٢].

فيكون ما بالآية الكريمة من قبيل الإعجاز العلمى إذ الأرض كروية الشكل فإذا كان نصفها فى مواجهة الشمس كان النهار ويكون النصف الآخر فى ظلام الليل وحين يصدر الأمر الإلهى يصادف ليلا فى مكان ونهارا فى مكان آخر فيصدق أن أمر الله قد أتاها ليلا ونهارا[٣].

٩- التشبيه فى قوله تعالى: "جعلناها حصيدا" أى جعلنا هذه الأرض التىجادت بهذا النبات وغنيت به مثل الأرض المحصود زرعها

١- روح المعانى ١٠١/١١.

٢- معانى الحروف للرمانى /٧٩.

٣- من بلاغة القرآن /٩٦،٩٧.

فى الخلو والجدب كأن لم تغن بالأمس ومما لاشك فيه أن نـزول الآفة العظيمة دفعة واحدة على هذه الأرض المخضـرة فـى ليـل أو نهار تجعل حسرة مـالك هـذه الأرض عظيمـة وحزنـه شـديدا وكذلك من وضع قلبه علـى لـذات الدنيـا وطيباتهـا إذا فاتتـه تلـك الأشياء العظيمة يعظم حزنه وتلهفه عليها.

١٠- التشبيه فى قوله تعالى "كأن لم تغن بالأمس" يوحى بقصر المدة التى تزينت فيها الأرض فهى ما كادت تـأخذ زخرفهـا وتـتزين حتى انمحت عنها تلك الزينة وكأن لم تكـن كمـا أن هـذا القـول الكريم قد سـار مسـير مثـل بيـن النـاس إذ يأسـون علـى النعيـم الزائل والمجد الغارب[1].

وكأن لدخول "أل" على "أمس" أثر فى جعل المـراد منـه -وللـه العلم- مطلق الزمان لا خصوص اليوم الذى قبل يومك.

١١- الإشارة إلى ما يوجب زوال الشك والشبهة ويحث على التفكير فى شأن هذه الدنيا والوقوف علـى حقيقتهـا وذلـك بقولـه تعـالى "كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" فالعظة فيه نفسية يوحى بها السياق لا نصية ينطق بها البيان[2].

---

[1]- البيان القرآنى /١٠٠.

[2]- المرجع السابق /١٠١.

ثانياً: مثل الحياة الدنيا فى [سورة الكهف]:

فى هذا النظم الكريم شبه الله -عز وجل- حال الحياة الدنيا فى نضرتها وبهائها المؤقتين الصائرين بعد حين إلى الفناء والزوال بحال ماء أنزل من السماء فكان حياة للأرض وروحا للنبات والحب والورق والعيدان والأغصان فشب كل ذلك وترعرع حينا من الزمان ثم أدركه اليبس والجفاف فأصبح هشيما منكسرا تذروه الرياح فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال. وعلى هذا فالتمثيل مركب.

وقيل: إن التشبيه هنا مفرد أى تشبيه الدنيا بالماء. قال القرطبى -رحمه الله-:

"وقالت الحكماء: إنما شبه الله تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر فى موضع كذلك الدنيا لا تبقى على واحد ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر[1].

---

[1]- الجامع لأحكام القرآن ٤١٤٣/٥.

وقد روى السيوطى -رحمه الله- عن بعضهم أنه قال:

وجه تشبيه الدنيا بالماء أمران: **أحدهما**: أن الماء إذا أخذت منه فوق حاجتك تضررت وإن أخذت قدر الحاجة انتفعت به فكذلك الدنيا.

والثانى: أن الماء إذا أطبقت عليه كفك لتحفظه لم يحصل فيه شىء فكذلك الدنيا.

وقد أشار السيوطى -رحمه الله- إلى الرأى الأول وهو أنه تشبيه (تمثيل) مركب[1] ثم أورد الرأى الثانى[2].

والذى أميل إليه هنا -ولله العلم- هو أنه تمثيل مركب لأنه يحقق الغرض المقصود من النظم الكريم وقد ذهب إلى هذا المفسرون والسيوطى فى رأيه الأول.

وبالتأمل فى هذا النظم الكريم نجد:

١- أن هذا المثل قد ابتدأ بقوله تعالى: "واضرب لهم....." لوجود هذا القول الكريم فيما للصورة كبير تعلق به فى قصة الرجلين حيث يقول الله تعالى "واضرب لهم مثلا رجلين..."

---

[1]- وذلك أثناء حديثه عن تقسيم التشبيه باعتبار وجهه ومثل بآية (سورة يونس/٢٤)، راجع: الإتقان ١٣٠/٣، ومعترك الأقران ٢٧١/١، ٢٧٢.

[2]- المصدران السابقان نفس الموطن.

[سورة الكهف/٣٢] وما افتخر به صاحب الجنتين الكافر على صاحبه المؤمن كان هو المال والبنين "المال والبنون زينة الحياة الدنيا...." [سورة الكهف/٤٦] لذلك جاء الأمر من الله -عز وجل- لرسوله -ﷺ- بضرب هذا المثل "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا...." مبينا تفاهة هذه الدنيا وحقارة المتعلقين بها لأنهم يتعلقون بما لا بقاء له "والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا" [سورة الكهف/٤٦] ومثبتا للمؤمنين إيمانهم فلا يركنوا إلى الدنيا ولا يتشبسوا بها وإنما عليهم أن يعملوا للآخرة "وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون" [سورة الأنعام/٣٢] ويالبعد الشقة بين الدارين!!

٢- طى مراحل حياة النبات وزهائه حيث جاء قوله تعالى "فأصبح هشيما" عقب الاختلاط. ولم يتكلم عن أخذ الأرض زخرفها به كما أشارت آية يونس[1].

٣- الكناية فى قوله تعالى "فأصبح هشيما تذروه الرياح" عن الهلاك والبوار كما أن فيه إشارة إلى مرحلة من المراحل التى يمر بها نبات الأرض فى حالة نزول الكوارث فهذا الحطب الذى تحطم بفعل عوامل التعرية قد أصبح باليا تدوسه الدواب وأقدام الناس

---

[1]- الإعجاز البلاغى /١٠٨.

فيتهشم ويتكسر ويتفتت وحينما يصل النبات إلى تلك المرحلة يكون قد خف حمله فتحمله العواصف الهوج وتذروه فى كل مكان فلا يبقى له أثر.

٤- النص على أن ذلك الإنشاء للنبات وما ترتب عليه وهذا الإفناء وما آل إليه بقدرة العلى القدير "وكان الله على كل شىء مقتدرا".

٥- التمثيل فى هذا النظم الكريم جاء موجزا حيث أفاض السياق قبله فى توضيح قصة الرجلين وأظهر الحوار الذى دار بينهما تغير الأحوال وندم صاحب الجنتين على شركه بربه وتحسره على ما فرط فى جنب الله حيث أحيط بثمر جنتيه التى افتخر بهما وظن أنهما لن تبيدا أبدا ثم جاء هذا النظم الكريم بتمثيل الحياة الدنيا فى ختام هذه القصة كالتعقيب عليها.

فليس المراد تفصيل أحوال الحياة الدنيا -كما كان الحال فى التمثيل الوارد فى سورة يونس- بل المراد تصوير الإقبال منها ثم الإعراض والزوال وتفصيل ذلك تكفلت به قصة الرجلين التى أفاض السياق فى تجليتها.

٦- الأنسجة اللغوية التى جرت فى هذا التمثيل تدل على قصر الحياة مما يبقى فى النفس ظل الفناء والزوال حيث استخدم "الفاء" التى تدل على الترتيب والتعقيب وتتابع المراحل: "ماء أنزلناه

من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح"
وفى هذا تحذير من الافتتان بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها لأنها لا تتجاوز نباتا ومعلوم أن للنبات مدة قصيرة لا تلبث أن تنتهى.

ثالثاً: مثل الحياة الدنيا فى [سورة الحديد]:

فقد مثل الله -عز وجل- حال الدنيا فى سرعة تقضيها وقلة جدواها وفى بهجتها عند إقبالها وعبوسها عند إدبارها بحال النبات يستوى على سوقه ويخضر ويعجب به الزراع ثم يجف ويصفر ويكون هشيما وحطاما متكسرا ففى الطور الأول جمال وفتنة وسحر للناظرين وبهجة للنفس وراحة للعين وأنس لا يقدر قدره لكن هذا الطور لا يدوم بل ينقضى بسرعة ويحل الطور الثانى وفيه يزول الجمال والسحر والفتنة وراحة العين ثم لا يبقى من تلك الأعواد البديعة إلا حطام لا تستريح النفس إلى رؤيته وتذروه الرياح[1].

وإذا كانت الآية المباركة قبل هذا النظم الكريم قد عرضت واقع المؤمنين وواقع الكافرين فإن هذا المثل قد جاء تعقيبا للمغزى الذى سبقها وتأكيدا على موقف المؤمنين بأنهم يؤثرون ما عند الله تعالى بخلاف الكافرين فدنياهم هى جنتهم وهذا المعنى الثابت فى قلوب المؤمنين أكده الله -عز وجل- بهذا المثل.

---

[1]- خطوات التفسير البيانى /٣٠٤.

وبالتأمل فيه نجد:

١- أن هذا المثل قد ابتدأ بقوله تعالى "اعلموا" لوجود مثل هذا القول الكريم فيما للصورة تعلق به فى قوله تعالى "اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها..." [سورة الحديد/١٧] ولاشك فى أن ماء الغيث تكون به حياة الأرض فتربو بالنبات وتهتز ثم يورق النبات ويثمر فيعجب الزارعين كما أن فى البداية بهذا القول الكريم أيضا لفت للنظر وتحريك للذهن وإخبار بالعلم اليقين إذ يعوزهم ذلك ليكون الإدراك مصيبا لحقيقة الدنيا فواقع المؤمنين فى أخراهم وهم فى جنة يحبرون وواقع الكفار وهم فى جهنم يصطلون[١].

٢- أن أداة التشبيه "قد دخلت على مرادف الماء وهو الغيث وقد جاء المرادف منكرا للدلالة على أثره العظيم فى حياة النبات بل فى حياة كل حى.

٣- إن لفظ "مثل" لم يأت مع المشبه -كما فى آيتى يونس والكهف- وإنما ورد مع ما له أثر فى المشبه به ولعل السر فى ذلك: تحقيق التعادل بين الصور.

٤- إن هذا المثل لم يأت فيه وصف الماء بأنه نازل من السماء كما

١- موسوعة الأمثال القرآنية ٢/٣٠٦.

أنه لم يرد فيه ذكر الماء وإنما ورد بلفظ "غيث" الذى يدل على ما يدل عليه الوصف لأن "الغيث" يطلق فى القرآن الكريم على (ماء المطر).

وقد ورد هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى مواضع ثلاثة فقط[١]:

١- قوله تعالى: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث..." [سورة لقمان/٣٤].

٢- قوله تعالى: "وهو الذى ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته...." [سورة الشورى/٢٨].

٣- قوله تعالى: "اعلموا أنما الحياة الدنيا ...... كمثل غيث أعجب الكفار نباته....." [سورة الحديد/٢٠].

وكلمة "الغيث" فى هذه الآيات المباركة تعنى: "ماء المطر النازل من السماء".

ومن هنا ندرك عدم حاجة هذا المثل للنص على هذا الوصف ولو جىء به كان قولا مكرورا لا فائدة فيه[٢]

٥- إن قوله -عز وجل- "أعجب الكفار نباته" قد دل -ولله العلم-

---

[١]- راجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (غيث).

[٢]- من بلاغة القرآن الكريم /٤٣.

على ما وصل إليه هذا النبات من خضرة ونضرة وازدهار فما كان للزارعين أن يعجبوا به إلا لأنه قد بلغ التمام فى النضج بعد ما كاد اليأس يتسرب إلى قلوبهم وقد أغنت هذه الجملة القرآنية -ولله العلم- عن قوله: "فاختلط به نبات الأرض".

٦- إن التعبير بقوله تعالى: "ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما" يصور حركة نشيطة للفناء العاجل فالنبات الذى أعجب به الزارعون أمس قد أصبح الآن على غير ما يعجب ويروق فقد اصفر لونه بعد خضرة مما يؤذن بالنهاية وفى اختيار لفظ "يهيج" للتعبير عن حال النمو والنضارة ملاءمة دقيقة لحال المشبه وهو اللعب والتفاخر والتكاثر وما فى ذلك من الهيجان والجلبة[1].

وجاء التعبير بـ "مصفرا" دون "فيصفر" للإيذان بأن اصفراره مقارن لجفافه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك ومعلوم أن اصفرار الأوراق وذبولها لابد وأن يؤدى إلى جفافها وسقوطها فتتعرى السيقان عما كان يغطيها من أوراق وأظهار فتبدو حطبا جافا قد نضبت فيه ماء الحياة وقد خلع ما كان عليه من الزينة والزخرف وهذا هو معنى قوله تعالى "ثم يكون حطاما".

٧- أنه قد جاء التعبير بـ "الواو" بدلا من "أو" فى قوله تعالى: "وفى

١- الإعجاز البلاغى /١٠٨.

الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان..." ولعل السر في ذلك أن "الواو" بمنزلة "أو"[١].

٨- إن هذا النظم الكريم قد قابل بين حالي "الدنيا والآخرة" بمقابلة واضحة يتبين منها الفارق بين الدارين: (الحياة الدنيا والحياة الآخرة) ملخصا وموجزا ليضع العاقل ذلك نصب عينيه فيتخير ما يشاء وفي هذا قمة النصح.

٩- إن قوله تعالى: "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" يبين أن المغرور المخدوع هو الذي يؤثر الدنيا على الآخرة كما يحمل في طياته ما يدل على تفاهة الدنيا وحقارتها.

١٠- لو أدمجنا الصور الثلاث في صورة واحدة تبتدىء بآية (سورة يونس) -أسبق الآيات نزولا وترتيبا- وتتوسطها آية (سورة الكهف) -التي نزلت بعد آية (سورة يونس) وقبل آية (سورة الحديد)- ثم تختتم بآية (سورة الحديد) لوجدنا أن الصورة الجامعة هذه قد اختتمت بذكر (الحياة الدنيا) "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" كما ابتدئت بذكر الحياة الدنيا "إنما مثل الحياة الدنيا" وهذا ما يسمى بـ "تشابه الأطراف" وهذا فيه تشكيل للإطار الخارجي الذي ترتسم بداخله الصورة.

١- تفسير جامع البيان للطبري ١٣٤/٢٧.

فالصور الثلاث تمثل شيئا واحدا هو الحياة الدنيا وقد جاءت كل صورة منها مختلفة فى أبنيتها عن الأخريين متلائمة فى سياقها الذى وردت فيه.

ولنقرأ ما علق به الرمانى حين ساق آية (سورة يونس) وآية (سورة الحديد) فى قرن واحد وهو:

"إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما قد جرت" ثم علق على آية "سورة يونس" بقوله: "[وقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده وفى ذلك عبرة لمن اعتبر والموعظة لمن تفكر فى أن كل فان حقير وإن طالت مدته وصغير وإن كبر قدره][1].

وقال فى تعليقه على آية (سورة الحديد): [وقد اجتمعا فى شدة الإعجاب ثم فى التغيير بالانقلاب وفى ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها][2].

وآمل أن لا يظن القارىء الكريم أننا نوازن بين آيات من كتاب الله -عز وجل- فكتاب الله تعالى أجل وأرفع من أن نجعله فى مقام الموازنة أو أن نفضل نصا على آخر أو أن نميز بين تعبير وتعبير فهو الإعجاز من أى النواحى أتيته. وإنما هو تحليل كاشف

---

[1]- النكت فى إعجاز القرآن للرمانى (ضمن ثلاث رسائل) /٧٧.

[2]- المصدر السابق نفس الموطن.

-قدر الطاقة- لنمط من التصوير البيانى تلتقى أصباغه تارة وتختلف تارات.

ففى كل مثل من هذه الأمثال الجديد فى التعبير والجديد فى الإيحاء والجديد فى المعنى مع أن الموضوع واحد ولا يجرؤ أحد أن يقول:

هذا المثل يغنى عن ذاك أو يحس القارىء أو السامع بملل أو تكرار ورغم مرور القرون على نزول القرآن الكريم فلا تحس بتقادم العصور وبعد الأزمنة وإنما تشعر بأن هذا المثل نزل على الفور والتو فالمعنى متجدد واللفظ ثوب المعنى وقالبه.

وأحب أن أشير إلى أنه إذا كان الغرض من هذه الأمثال -ولله العلم- عدم الركون إلى الحياة الدنيا وعدم الغرور بزخرفها العارض فليس معنى ذلك أن الإسلام يريد أن يزهد الناس فى الدنيا وأن يبغضهم فيها وإنما يريد ألا يتعلقوا بها تعلق المتشبث المتمسك بعرضها وإنما يعيش عليها عيشة الغرباء أو عابرى سبيل ومع هذا لا يحرم نفسه من طيباتها فما خلق الله -عز وجل- الدنيا لأناس وحرم منها آخرين كما تشير الآيات العديدة "ولا تنس نصيبك من الدنيا" [سورة القصص/٧٧].

و"قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق" [سورة الأعراف/٣٢] فالتمتع بالدنيا كما أمر الحق تبارك

وتعالى ليس هو التكالب ولا الشره ولا الجشع ولا النهم من هنا نعلم أن الله -عز وجل- لم يحرم علينا التمتع بطيباتها وكيف ذلك؟ وقد خلقنا وأودع فينا هذه الغرائز وهذه الشهوات ولابد من إشباع لهذه الغرائز وإطفاء لشعلة هذه الشهوات العارمة ولكن فى نطاق الحلال والمباح ولهذا لم يحمد الإسلام من يحرم نفسه من الدنيا كما لم يرض عن المتكالب عليها وطالب بالوسط بينهما كما أشار الحديث النبوى الذى يرويه أبو موسى الأشعرى -رضى الله عنه- عن رسول الله -ﷺ- أنه قال:

"من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى" رواه أحمد ورواته ثقات[١]. فمن يؤثر الدنيا كان موضع ذم وقدح ومن جمع بين الدنيا والآخرة وآثر الآخرة كان موضع مدح القرآن الكريم وثنائه كما مدح الله -عز وجل- خليله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- "وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين" [سورة النحل/١٢٢].

فالإسلام ليس دين الرهبنة ولا دين التبتل والانقطاع إلى الدين وإنما هو دنيا وآخرة معا.

وهذه حقيقة أردت بتوضيحها إزالة اللبس الذى قد يدفع بعض

---

[١]- الترغيب والترهيب للمنذرى ١٠٣/٤.

المسلمين إلى الخور والكسل فيسبقهم أعداؤهم ويصبحون فى ذيل القائمة ثم ينقمون على الإسلام ويزعمون أنه سبب تخلف المسلمين وما تخلف المسلمون إلا بعد أن التوت أفهامهم وانحرفت أفكارهم ولم يعرفوا القصد من التوجيه القرآنى.

وبعد:

فالقرآن الكريم عندما يصور حال الحياة الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها يعطى مثلا بارزا من البيئة التى يعيش فيها الناس ومن المشاهدات التى يرونها.

فكل واحد يشهد دورة الزرع تحدث أمامه فى فترة قصيرة يشهد أولها وآخرها فنرى نباتا يحيا ونباتا يموت نرى النضارة والذبول يمثلان أمامنا نرى أغصانا وأعشابا وأوراقا ذابلة تسقط يمثل أمامنا فيها الفناء وهى حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ولا إهمال عمارتها وخلافتها إنما يقصد بها تصحيح المقاييس والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض مما كان له أثره البالغ فى نفوس المؤمنين.

فالقرآن الكريم قد استخدم التمثيل فى تقريب البعيد النائى حتى أصبح قريبا دانيا كما استخدمه أيضا فى جعل الغائب كأنه حاضر ومن هنا تأكدت حقيقة فناء الدنيا.

كما كان للتفنن فى عرض المثل -حيث أطنب مرة وأوجز أخرى- أثر فى استقرار معناه فى النفس وحدوث أثره فى القلب.

مثل أعمال الكافرين

قال الله تعالى: "مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد" [سورة إبراهيم/١٨].

بعد أن ذكر سبحانه ما سيلاقيه الكافرون فى يوم القيامة من سائر أنواع العذاب التى سلف وصفها "...... وخاب كل جبار عنيد. من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد. يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ" [سورة إبراهيم/١٥-١٧] بين هنا أن ما عملوه فى الدنيا من صالح الأعمال -كصلة الأرحام وبر الوالدين والصدقة وعتق الرقاب وفداء الأسارى وقرى الأضياف وإغاثة الملهوفين وغير ذلك- لا يجديهم فتيلا ولا قطميرا فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح فى يوم عاصف فذهبت به فى كل ناحية فهم لا يجدون من أعمالهم فيه شيئا.

وقد سلك القرآن الكريم فى بيان ذلك طريق التصوير البيانى من خلال التشبيه التمثيلى الذى يتكون من عدة أجزاء تتجمع وتتضام لتعطينا صورة محسوسة تدركها الأبصار وتعيها العقول.

فقد شبه الله -عز وجل- أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله -عز وجل- وعلى غير مراده برماد هش طيرته الريح العاصف فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه ووجه الشبه هو: الهيئة الحاصلة من عدم ظهور أثر الشيء ورجاء نفعه إذا بني على أساس واه وأقيم على ركن ضعيف[١].

أو هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمعه. ومن لطائف هذا التمثيل أنه اختير له التشبيه بهيئة الرماد المجتمع لأن الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم.

وسيقت هذه الآية المباركة على سبيل الاستئناف البياني لسؤال مقدر نشأ من الحديث السابق عن صفة التعذيب لكل جبار عنيد وكأنه قيل: ما بال أعمالهم التي عملوها حتى آل أمرهم إلى ذلك المآل؟ فبين الله -عز وجل- صفتهم العجيبة بهذا التمثيل المركب وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

وانظر إلى تسجيل عنوان الكفر عليهم وجعلهم بهذا العنوان الكريه مضرب المثل ثم انظر إلى ربط الكفر بهذا الاسم الكريم

---

[١]- راجع: التفسير القيم/٢٣٦ والقرآن والصورة البيانية /٥٢.

"الرب" وخصيصته التعطف والتحنان والتفضل بأنواع التربية والتعهد بالفواضل والنعم فالكفر به -عز وجل- أبشع من الكفر بغيره كما هو مركوز فى طباع البشر ألا ترى أن النفوس البشرية أشد كراهية وبغضا لمن أساء إلى من أحسن إليها.

وإنك لتلمح فى تشبيه أعمالهم "بالرماد" سرا بديعا وهو: التشابه بين أعمالهم وبين الرماد فى إحراق النار وإذ هابها لأصل هذا وهذا فكانت الأعمال التى لغير الله -عز وجل- وعلى غير مراده طعمة للنار وبها تسعر النار على أصحابها وينشىء الله -عز وجل- لهم من أعمالهم الباطلة نارا وعذابا كما ينشىء لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التى هى خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما وروحا.

فأثرت النار فى أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار[1] وقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات وفى ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة[2].

والرماد: هو التراب المتخلف عن الحريق وهو عنصر

١- التفسير القيم /٢٣٧.

٢- النكت فى إعجاز القرآن للرمانى (ضمن ثلاث رسائل) /٧٦.

أرضى مستقر أخف وألين من التراب والرملة ولكنه أتبع بقوله تعالى "اشتدت به الريح" فأزال استقراره وبدد آثاره. وبناء الجملة يشير إلى هذه القوة العاتية التى طير بها هذا الرماد فمادة الفعل "اشتدت" تدل على القوة والإسراع إلى التبديد والخسران. والتعبير بقوله -عز وجل- "به" دون "عليه" يدل على أن الريح قد أذهبته برمته حيث ألقت به فى مكان سحيق فإذا أضيف إلى ذلك أن الرماد وهو المتخلف عن الإحراق أخف من التراب كان ذلك أدعى إلى إذهابه ومحق آثاره. أما التعبير بـ "عليه" فيوحى بأن الريح قد اشتدت عليه وهو ثابت فى مكانه وهذا غير مراد.

ونلاحظ معا أن القرآن الكريم قد استخدم التعبير بـ "الرماد" دون "التراب" ولعل السر فى ذلك أنه لما كانت أعمال الذين كفروا تافهة المعنى ضائعة القيمة لا تصلح أن تكون شيئا كأنها ذرات الرماد التى تطير بها الريح فى يوم عاصف -لما كانت كذلك فقد عبر عنها بالرماد دون التراب الأكثر كثافة من الرماد فالرماد هنا ذائب مع الهواء ولذا ناسبه الريح الشديدة العاصفة فلو وضع التراب هنا مكان الرماد لا يمكن أن يؤدى هذا المعنى فى الصورة الرائعة التى عبر بها القرآن الكريم.

وفى سياق آخر نرى القرآن الكريم يعبر بـ "تراب"[١] دون "الرماد" فلكل منهما موقف لا تصلح فيه إحداهما مكان الأخرى وهذه دقة فى التمييز بين معانى الكلمات.

ولما كان الموطن موطن عذاب جاءت كلمة "الريح" مفردة طبقا للاستعمال الغالب فى القرآن الكريم. ثم وصف الزمن بكونه عاصفا فقيل "فى يوم عاصف" أى شديد الريح وفى إسناد العصف إلى الزمن مجاز عقلى علاقته الزمانية وفيه من المبالغة ما فيه فإذا كان الزمن عاصفا فما حال ما فيه كما يدل على شمولية العصف لليوم كله. فالعصف هنا -ولله العلم- رمز للقوة الخارقة التى تقتلع هؤلاء الكافرين من جذورهم فضلا عن أعمالهم ورمادهم[٢].

وجملة "لا يقدرون مما كسبوا على شىء" بيان لجملة التشبيه وتوكيد لمعناه أى ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن ينتفعوا بشىء منها لأن الله -عز وجل- لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم وموافقا لشرعه الحنيف وفى التعبير بقوله تعالى: "لا يقدرون" دلالة على محاولة واستنفار أقصى الطاقة لتبلغ القدرة مبلغا يصل بها إلى اقتناص ما كسبت ثم إخلادهم إلى التسليم والعجز

١- كما فى الآية (٢٦٤) من سورة البقرة.

٢- من جمال النظم القرآنى /١٠٨.

وهذا وصف خفى للهول الذى لا يحاط به[١].

وبالتأمل فى هذا النظم الكريم نجد أن قوله -عز وجل- "مما كسبوا" قد تقدم على قوله تعالى "شيء" وفى سورة البقرة وهو يتحدث عن المنفق المرائى الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر تقدم قوله -عز وجل- "شيء" على قوله تعالى "مما كسبوا" فقال هناك: "....لا يقدرون على شيء مما كسبوا" [سورة البقرة/٢٦٤].

ولعل السر فى ذلك هو: أن قوله تعالى فى سورة البقرة "لا يقدرون على شيء مما كسبوا" قد ورد ضمن خطاب المؤمنين حيث ينهاهم الله -عز وجل- أن يكونوا مثل من ينفق ماله رئاء ولا يؤمن بالله واليوم الآخر والمظهر للإيمان والمبطن للكفر وورد قوله تعالى فى سورة إبراهيم فى سياق كلام مبنى من أول الأمر على بيان مصير أعمال الكافرين وهو شامل لجميع أعمالهم من الطاعات الظاهرة ومنها الإنفاق.

والمنافق حين ينفق إنما يريد استثمار نفقته لتعود عليه بالنفع ولما كان يتظاهر بإنفاقها بين الناس موهما لهم أنه يبتغى بها وجه الله ويخفى قصده الحقيقى فإن "شيء" وهو ما يرجو أن يحصل عليه من ربح هو كل أمله الذى يملأ نفسه فقدم من أجل ذلك وسلط عليه

---

[١]- دراسة فى البلاغة والشعر /٢٩.

بالنفى ليكون أبلغ فى قطع آماله وعقم كسبه.

أما يوم القيامة فإن الكافرين تتعلق آمالهم بكسبهم ظانين أنه مجد لهم فكسبهم حينئذ ملء نفوسهم فعمد القرآن الكريم -ولله العلم- من أول الأمر إلى محط رجائهم ونفى قدرتهم عليه: "لا يقدرون مما كسبوا على شيء" وفى ذلك إشارة إلى عجزهم الشامل فإذا كانوا عاجزين عن كسبهم فإن عجزهم عما سواه ثابت متحقق[١].

هذا: وجملة "ذلك هو الضلال البعيد" تذييل جامع لخلاصة أحوالهم وتشخيص لما صاروا إليه من الضلال الذى لا يرجى عودهم منه وهو تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير فى يوم عاصف..... إلى بعيد!!

وتأكد هذا المعنى ببنائه على الجملة الاسمية التى تعنى الثبوت والدوام وبضمير الفصل "هو" ودخول الألف واللام على الخبر "الضلال" ووصفه بالبعد على طريق المجاز العقلى لأنه فى الأصل صفة للضال لأنه هو الذى يتباعد عن الأعمال الصالحة فوصف المصدر به فيه من المبالغة ما فيه وما كان ينبغى أن

١- خصائص التعبير القرآنى ١٧٧،١٧٦/٢ وراجع: غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى على هامش تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ١٢٢/١٣، وروح المعانى ٢٠٤/١٣.

يصيروا إلى هذا الضلال البعيد لأن الأدلة المادية على وجود الله -عز وجل- ووحدانيته ظاهرة ومبثوثة فى الكون سمائه وأرضه.

ونلاحظ أن "الضلال" قد وصف بـ "البعيد" دون "المبين" ولعل السر فى ذلك أن الريح لما طيرت الرماد المضروب مثلا لأعمالهم واشتد عصفها به فى يوم اشتد عصفه. المعنى إذن: إن الريح طيرت الرماد إلى مسافات نائية جدا لو تعقبوها فى تلك المسافات لوقعوا فى حيرة وضلال بعيد.

والمسافات -كما نعلم- يناسبها البعد الذى جعل الوصف منه وصفا لضلالهم فى هذا المكان.

وعن بلاغة التمثيل فى هذا النظم الكريم يقول الأستاذ/ سيد قطب:

"ومشهد الرماد تشتد به الريح فى يوم عاصف مشهود معهود يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى لا يقدر أصحابها على الإمساك بشىء منها ولا الانتفاع به أصلا يجسمه فى هذا المشهد العاصف المتحرك فيبلغ فى تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهنى المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددا.

هذا المشهد ينطوى على حقيقة ذاتية فى أعمال الكفار. فالأعمال التى لا تقوم على قاعدة من الإيمان ولا تمسكها العروة

الوثقى التى تصل العمل بالباعث وتصل الباعث بالله.... مفككة كالهباء والرماد لا قوام لها ولا نظام.

فليس المعول عليه هو العمل ولكن باعث العمل. فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية. وهكذا يلتقى المشهد المصور مع الحقيقة العميقة وهو يؤدى المعنى فى أسلوب مشوق موح مؤثر"[١].

وبعد: فلئن كان المعنى فى هذا المثل هو: عدم انتفاع أى إنسان بعمل من الأعمال مادام غير مؤمن إلا أن الأسلوب فى هذا التمثيل أوضح لنا ظاهرة من ظواهر الصحراء وهى العواصف والرياح مما يؤكد أن هذا هو أسلوب القرآن الكريم فى تصويره حتى يقترب المعنى من الذهن ويستقر فى القلب ولا يجنح إلى الخيال المفرط وإنما يعبر فى صور مألوفة من البيئة لا يحس الكافر بغرابة لأنها صور مقنعة.

وفى موطن آخر من سورة النور صورت أعمال الكافرين التى تذهب هباء منثورا بالسراب وذلك فى قوله تعالى: "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب" [سورة النور/٣٩].

---

[١]- فى ظلال القرآن ٤/٢٠٩٤.

ثم زاد -عز وجل- تنويع صورة المشبه به فقال:

"أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" [سورة النور/٤٠].

فقد وضحت هذه الآيات الكريمة أعمال الكافرين الذين لم يهتدوا إلى نور الله -عز وجل- وبينت حقيقتها فهى أعمال لا نفع لها ولا فائدة منها وهى ضلال ناتج عن ضالين.

وقد ذكر القرطبى ما قاله مقاتل من أن قوله -عز وجل- "والذين كفروا....إلخ" قد نزل فى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس كان يترهب متلمسا للدين فلما خرج -ﷺ- كفر[١].

وقد سلك القرآن الكريم فى بيان ذلك طريق التصوير البيانى من خلال تشبيهين تمثيليين يتكون كل منهما من أجزاء تتجمع وتتضام لتعطينا صورة محسوسة تدركها الأبصار وتعيها العقول.

ويرى بعض العلماء أن التمثيل الأول لأعمال الكفار الصالحة التى يحسبونها نافعة لهم والثانى لكفرهم وأعمالهم القبيحة التى ليس فيها شائبة خير[٢].

١- الجامع لأحكام القرآن ٤٨١٩/٦.

٢- راجع: المصدر السابق نفس الموطن، وإرشاد العقل السليم ٩٦/٤.

وبيان ذلك أنه:

فى التمثيل الأول: قد شبه أعمال البر والخير من الكافرين وظنهم أنها نافعة لهم ومنجية من عقاب الآخرة فتحبط أعمالهم وتخيب ظنونهم وتنقشع آمالهم بسراب[١] يراه الظمآن فى الفلاة وهو فى شدة الحاجة إليه فيحسبه ماء فيعدو نحوه فلا يجد شيئا فتتحطم آماله وتشتد حسراته فأعمال الكفار كهذا السراب يظن أنه الماء وليس به.

ووجه الشبه هو: الهيئة الحاصلة من الأمل المطمع والنهاية المؤيسة أو هو الهيئة الحاصلة من بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقه.

وفى التمثيل الثانى: شبه أعمال الكفار القبيحة وعقائدهم الفاسدة بهذه الظلمات فى البحر الزاخر العميق تغطيه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الأمواج وظلمة البحر ظلمات بعضها فوق بعض ولشدة الظلمة لا يستطيع المرء أن يبصر يده بينها فقلوبهم وأعمالهم بمنزلة هذه الظلمة الكثيفة لا ينفذ منها شعاع من رحمة الله.

---

[١]- السراب: ما يرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى. والقيعة والقاع: المنبسط المستوى من الأرض.

ووجه الشبه هو: الهيئة الحاصلة من الضلال المؤدى إلى الهلاك لعدم الاهتداء مع فوات الجهد ونفاذ الصبر ودوام الحيرة والندم والحسرة[١] وقد بين التمثيل الأول بوار أعمالهم وخيبة أملهم حيث كانوا يرجون نفعها وينتظرون عائدها فإذا هى تبور فيضيع أملهم وتعظم حسرتهم وتشتد ندامتهم.

وبين التمثيل الثانى: ما يلازم الكافرين من جهالة وضلال وما يحيون فيه من ظلمات مدلهمة هى ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل.

والذى أميل إليه هو أن التمثيلين لشىء واحد هو: أعمال الكفرة الصالحة التى يحسبونها تنفعهم فإذا بهم يرونها سرابا يلهث وراءه وظلاما قد تراكم أحالها إليه كفرهم وإعراضهم عن نور الله -عز وجل- وإذا كانت هذه الأعمال الصالحة سرابا وظلاما فغيرها من الكفر والأعمال القبيحة التى عملوها تكون كذلك من باب أولى.

يقول الزمخشرى -رحمه الله-: "شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التى يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تخيب فى العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء

١- القرآن والصورة البيانية /٥٢،٥٣، والبيان فى ضوء أساليب القرآن /٥٦.

فيأتيه فلا يجد ما رجاه ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق... شبه أعمالهم أولا فى فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئا ولم يكفه خيبة وكمدا ان لم يجد شيئا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار ولا يقتل ظمأه بالماء وشبهها ثانيا فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفى خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب"[١].

وقد جاء المثل الثانى "أو كظلمات.....إلخ" رادفا للمثل الأول "كسراب بقيعة....إلخ" وهو -كما ذكرت سابقا-[٢] من الباب الذى ينتقل فيه الكلام من تشبيه إلى تشبيه -وهو كما يقول المفسرون: انتقال من البليغ إلى الأبلغ- وهو قليل من القرآن كثير فى الشعر الجاهلى وخاصة فى الصور المتسعة المتحركة فى أوصاف الناقة أو حمار الوحشى أو غير ذلك.

وقد تنوعت هذه الصورة[٣] باعتبار وقتين هما: الدنيا والآخرة فإنها كالسراب فى الآخرة من حيث عدم نفعها وكالظلمات فى الدنيا

---

[١]- تفسير الكشاف ٣/٢٤٣،٢٤٤.

[٢]- راجع ص٥٦ من هذا البحث.

[٣]- هذا التوجيه مبنى على أساس أن معنى "أو" فى قوله تعالى "أو كظلمات" للتقسيم.

من حيث خلوها عن نور الحق الذى يهتدى به وخص هذا بالدنيا لقوله تعالى "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" فإنه ظاهر فى الهداية والتوفيق فى الدنيا وخص الأول بالآخرة لقوله تعالى: "ووجد الله عنده" وقدم أحوال الآخرة التى هى أعظم وأهم لاتصال ذلك بما يتعلق بها من قوله سبحانه: "ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله...."إلخ [سورة النور/٣٨] ثم ذكر أحوال الدنيا تتميما لها[١].

وعندما نمعن النظر فى هذين التمثيلين نجد أن النسق اللغوى والنظم الإلهى يضفى حياة على الصورة التشبيهية ويكسبها ظلالا إيحائية لا يستطيع طرفى التشبيه وحدهما أن يقوما بها فالنظم الإلهى والتركيب اللغوى يبرز حالة نفسية حركية تصور معاناة سائر فى صحراء قاحلة تناوشه أحاسيس الظمأ ويحاول تهدئتها بقرب إدراكه الماء الذى ينكشف فى نهاية الطريق عن وهم خادع.

وقوله تعالى: "يحسبه الظمآن ماء" يشير إلى خداع النفس بعد خداع البصر بهذا السراب فإن لهفة الظمآن وحرارة شوقه إلى الماء تغطى على عقله فيخال السراب ماء مثله كالخائف المذعور فى سواد الليل ووحشته يمثل له الوهم أشباحا تطلع عليه من كل أفق

---

[١]- روح المعانى ١٨/١٨١،١٨٢.

تريد الفتك به[١].

والتعبير بالحسبان دون الظن يفيد توجه عقله وتفكيره إلى أن ما يراه ماء لا غير لأن الحسبان حكم على أحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر على البال.

والتعبير بكلمة "الظمآن" مع أن كل إنسان يحسب السراب ماء لتكميل التشبيه ببيان شدة حسرته وندمه حيث لم يجد الماء مع شدة حاجته إليه[٢] ولو قيل: يحسبه الرائى ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغا لكن نظم القرآن أبلغ[٣] لأنه يشير -ولله العلم- إلى أن الظمآن أشد حرصا عليه وتعلق قلب به. ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأبد فى النار ومما لاشك فيه أن حسرة المحتاج إلى الشىء بفقده أشد من حسرة غيره.

و"حتى" فى قوله تعالى: "حتى إذا جاءه لم يجده شيئا" تشعر بالمعاناة وتشير إلى الاجتهاد فى الوصول إلى هذا الماء المتخيل كما تشير إلى أنه تدرج فى شوط بعيد وقطع مسافة طويلة حتى جاءه لأن المعهود أن السراب يتحرك فى مرأى العين بتحرك قاصده

١- التفسير القرآنى للقرآن ١٢٩٣/٩.

٢- إرشاد العقل السليم ٩٦/٤.

٣- النكت فى إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) /٧٥.

ومن هنا تظل المسافة بينهما بعيدة ولا يلتقيان وعلى هذا فإن معنى "جاءه": جاء موضعه فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وفى الحذف إشارة إلى أنه أجهد نفسه وأرهقها حتى جاء إلى غير موجود ويرشد إلى هذا الفهم قوله تعالى: "لم يجده شيئا" فإن الظمآن بعد أن قاسى التعب ووصل إلى موضع السراب لم يجد السراب شيئا ولم يجد أثرا لما كان يتراءى له ماء أو غير ماء فانتهى الفرح إلى ترح مفاجىء ولو قيل: "لم يجده ماء" لكان للسراب وجود فى صورة من الصور فقوله "جاءه" يعطى إحساسا بالتلاحق النفسى بين الفعل "جاء" وصاحبه وبين الهاء التى يراد بها هذا الماء المتوهم أو السراب المحقق وقوله تعالى "لم" نافية لنذير اليأس وفقدان الأمل "لم يجده" هنا تتصل الهاء بالفعل "يجده" كما اتصلت بالفعل "جاءه" من قبل هناك أمل يلتصق بالجوانح وهنا يأس عانق الذات تصنع أوله "الهاء" فى الأول وتصنع آخره الهاء فى الثانى ثم تنتصب كلمة "شيئا" لتكمل صورة العدمية المطلقة[١].

وقوله تعالى: "ووجد الله عنده فوفاه حسابه" بيان لمآلهم بعد الخيبة والقنوط لكى لا يتوهم أن هذا نهاية حالهم كالظمآن وإنما لهم تكملة أخرى حيث يحاسبون ويوفون جزاءهم[٢].

---

[١]- البيان فى ضوء أساليب القرآن ٥٦،٥٧.

[٢]- إرشاد العقل السليم ٩٦/٤.

وقوله تعالى: "والله سريع الحساب" تذييل يقرر ما سبق من الحساب وتوفية الجزاء ويبين أن ذلك لا تمهل فيه ولا تأخير فإن فاعله هو الله -عز وجل- وهو سريع الحساب لا يشغله حساب عن حساب وهو تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار يفيد استقلال جملة التذييل ويشعر بعلة الألوهية للحكم الذى تضمنته الجملة[1].

فتأمل قوة التشبيه فى هذا النظم الكريم ثم انظر لو أن القرآن الكريم اختار التعبير الذى لا خيال فيه وقال مثلا: والذين كفروا أعمالهم غير مثمرة لم يكن له فى النفس هذا الأثر القوى الذى يصور عدم جدوى هذه الأعمال إذ يقرنها بشىء نراه بأعيننا ونكاد نؤمن بوجوده إيمانا لا يتسرب إليه الشك إذ نرى السراب فى الصحراء فنظنه ماء يروى ظمآن كما نرى أعمال الكفرة فنظنها مجدية نافعة ولكننا لا نلبث أن نقترب من موضع هذا السراب فلا نجد شيئا.

إن هذه الصورة التى أتى بها القرآن الكريم تزيدنا اقتناعا بالفكرة التى يريد القرآن أن نقتنع بها[2].

١- مع النظم القرآنى /١٤١.

٢- أسس النقد الأدبى عند العرب /٥١١.

وبعد: فلقد اتضح لنا مما سبق أن القرآن الكريم قد استمد عناصر تصوير هذا المثل من البيئة الصحراوية ومن طبيعة الأرض فى الجزيرة العربية ولاشك أن الماء بها قليل والتنقل فى هذه الأرض يجعل المسافر فيها متزودا بالماء وربما نفد منه فعاش على الأوهام والخيالات ينشد الماء فلا يجده ويطلبه فلا يسعفه وأظن أنه لن يغيب عن بال المسلم قصة السيدة هاجر. وابنها سيدنا إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

فهو مثل تصويرى لضياع الأعمال التى يقوم بها الكافرون ظانين أنهم سيجدون جزاءها المرتقب فتضيع هباء دون فائدة وفى هذا تأكيد على أن الأساس فى الأعمال كلها وفى الدنيا كلها هو الإيمان وتوضيح أن العمل إذا لم يكن مقرونا بالإيمان ذهب عنه صلاحه وضاعت قيمته.

هذا: و"أو" فى قوله تعالى "أو كظلمات" للعطف: عطف "ظلمات" على "كسراب" واختلف أهل العلم فى معناها فقيل إنها للتخيير وقيل إنها للتنويع وفيها إنها للتقسيم. فإذا كانت "أو" للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها كالسراب ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب وإذا كانت للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحة فكالظلمات وإذا كانت للتقسيم فباعتبار وقتين فإنها كالظلمات فى

الدنيا وكالسراب فى الآخرة[1] وهو الذى أميل إليه.

وتنكير "ظلمات" لتفخيمها وتهويلها والظاهر أن جمع "ظلمات" للتكثير وأن أنواع الضلالات والأباطيل اجتمعت فيه وهو جمع فى مقابلة "أعمالهم" -وهى جمع كذلك- فتقضى القسمة آحادا أى أن كل عمل من أعمالهم ظلمة لأنهم لم يسيروا فيه على هدى من ربهم وإنما مضوا فيه بطريق الهوى المتبع.

ووصف "الظلمات" بأنها "فى بحر لجى" للمبالغة فى تهويلها فإن ظلمات البر مهما اطبقت فهى أهون من ظلمات البحر بسبب ما يصاحب البحر من أهوال وأخطار وصعوبة الاهتداء فيه فى جو الظلمات المخيف ووصف البحر بأنه "لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب" لزيادة المبالغة فى تهويل الظلمات ولبيان كمال إطباقها كما يشير إليه قوله تعالى: "ظلمات بعضها فوق بعض" فهى ظلمات مجتمعة ظلمة الجو وظلمة الأمواج وظلمة السحاب التى غطت فوق هذه الظلمات مع ما يصاحب ذلك من هول البحر وتلاطم أمواجه.

وقد أوجد التشديد المتوالى لحروف قوله "بحر لجى يغشاه" وقعا شديدا يجسد هول البحر وارتطام أمواجه[2].

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل /٤٧١.

٢- مع النظم القرآنى /١٤١.

ومع هذه الكناية المعبرة عن تكاثف الظلمات "ظلمات بعضها فوق بعض" بين القرآن الكريم شدة هذه الظلمات بتجربة عملية إذا تمت أظهرت تمام إطباقها وذلك فى قوله تعالى: "إذا أخرج يده لم يكد يراها" فالواقع فى هذه الظلمات الكثيفة إذا أخرج يده وقربها من عينيه ليراها لم يقارب رؤيتها فضلا عن أن يراها وهذا دليل أكيد على تمام إطباق الظلمات ومن المعلوم أن اليد من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظن أنه لا يراها.

وفاعل "أخرج" و"يكد" مستتر تقديره: هو أى الواقع فيها أو المبتلى بها وإنما أضمر من غير تقدم ذكر له لدلالة المعنى عليه وظهوره من سياق الكلام[١].

فمثله ينساب اليأس القاتل إلى نفسه فما تتجلى -فيما أعتقد- هذه الكروب إلا وهو صريع على سطح الماء تلقى به الأمواج إلى مكان سحيق وهكذا يكون حال الكافر يتخبط فى دنياه متبعا هواه حتى يرديه فى جهنم وبئس المثوى مثواه.

وقوله تعالى: "لم يكد يراها" أبلغ وأقوى فى نفى الرؤية لأنه يدل على أنه لم يقارب رؤيتها فضلا عن أن يراها[٢] فنفى القرب

١- أنوار التنزيل /٤٧١.

٢- تفسير الكشاف ٣/٢٤٤.

من الرؤية أبلغ من نفى الرؤية نفسها وقد ارتضى الزركشى رأيا لبعض النحاة واختاره على غيره وهو أن "كاد" إثباتها إثبات ونفيها نفى كغيرها من الأفعال لأن معناها المقاربة فمعنى "كاد أن يفعل" قارب الفعل ومعنى "ما كاد أن يفعل" لم يقاربه فخبرها منفى دائما.

أما إذا كانت منفية فواضح لأنه إذا انتفت مقاربة الفعل اقتضى عقلا عدم حصوله ويدل له قوله تعالى: "إذا أخرج يده لم يكد يراها" ولهذا كان أبلغ من قوله: لم يرها لأن من لم ير قد يقارب الرؤية[١].

وهناك أقوال أخرى ذكرها كل من الطبرى[٢] والرازى[٣] والشريف الرضى فى كتاب "الغرر" ونقلها عنه الزركشى فى البرهان[٤].

وقد فصل الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- القول فى هذه المسألة ومما قاله فيها:

"إن الذى يقتضيه اللفظ إذا قيل: "لم يكد يفعل" و"ما كاد يفعل"

---

[١]- البرهان فى علوم القرآن ١٣٦/٤،١٣٧.

[٢]- تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن ١١٦/١٨،١١٧.

[٣]- مفاتيح الغيب ٦٠٢/١١.

[٤]- البرهان فى علوم القرآن ١٣٧/٤،١٣٨.

أن يكون المراد أن الفعل لم يكن من أصلـه ولا قـارب أن يكـون ولا ظن أنه يكون وكيف بالشك فى ذلـك؟ وقـد علمنـا أن "كـاد" موضـوع لأن يدل علـى شدة قـرب الفعـل مـن الوقـوع وعلـى أنـه قـد شـارف الوجود وإذا كان كذلك كان محالا أن يوجب نفيـه وجـود الفعـل لأنـه يؤدى إلى أن يوجـب نفـى مقاربـة الفعـل الوجـود وجـوده وأن يكـون قولك: "ما قارب أن يفعل" مقتضيا على البت أنه قد فعل"[١].

ثم ختم هذا المشهد الذى يصـور أعمـال الكـافرين بالظلمـات المتراكبة بقوله تعالى: "ومن لم يجعل الله له نورا فمـا لـه مـن نـور" وهو تذييل يقرر ما أفـاده تمثيـل أعمـالهم بالظلمـات المطبقـة ويشـعر أنهم ضالون عن هداية الله -عز وجل- ومحرومون من نوره ومـن حرم نور الله تخبط فى الظلمات فليس له من نور يخرجه منها.

والتعبير بالموصول "من" للإشـارة بمـا فـى حـيز الصلـة إلـى علة الحكم وتعميمه ليكون قاعدة عامـة والإتيـان بعد النفـى بـ "مـن" وتنكير "نور" لاستغراق النفى جميع أنواع النور أى فما لـه مـن نـور ولو كان قليلا ضئيلا[٢].

ويعلـق صـاحب الظـلال علـى المثليـن الوارديـن فـى أعمــال

١- دلائل الإعجاز /٢٧٥، ٢٧٦.

٢- مع النظم القرآنى /١٤٢.

الكفار والذين وردا فى سورة النور متتابعين وفى صورتين مختلفتين الأولى: صورة السراب والثانية: صورة الظلمــات فــى البحـر اللجـى بقوله: "التعبير يرسم لحال الكافرين ومآلهم مشهدين عجيبيـن حـافلين بالحركة والحياة. فى المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب فــى أرض مكشوفة مبسوطة يلتمع التماعا كاذبـا فيتبعـه صاحبـه الظـامـىء وهـو يتوقع الرى غافلا عما ينتظره هنـاك وفجـأة يتحـرك المشـهد حركـة عنيفة فهذا السائر وراء السراب الظامىء الذى يتوقع الشراب الغـافل عما ينتظره هنـاك.. يصـل فـلا يجـد مـاء يرويـه إنمـا يجـد المفاجـأة المذهلة التى لم تخطر له ببال المرعبة التى تقطع الأوصـال وتـورث الخبال: "ووجد الله عنده"! الله الذى كفر به وجحده وخاصمه وعـاداه وجده هنالك ينتظره! ولو وجد فى هذه المفاجـأة خصمـا لـه مـن بنـى البشر لروعه وهو ذاهل غافل على غير استعداد.

فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار؟ "فوفاه حسابه" هكذا فى سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة والفجـاءة "واللـه سـريع الحسـاب" تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع!

وفى المشهد الثانى تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ويتمثـل الهـول فـى ظلمـات البحـر اللجـى. مـوج مـن فوقـه مـوج. مـن فوقـه سحاب. وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض حتـى ليخـرج يـده أمـام بصره فلا يراهـا لشـدة الرعـب والظـلام! إنـه الكفـر ظلمـة منقطعـة

عن نور الله الفائض فى الكون. وضـلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى. ومخافة لا أمن فيها ولا قرار... "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور" ... فمن لم يتصل بهذا النور فهو فى ظلمة لا انكشاف لها وفى مخالفة لا أمن فيها وفى ضلال لا رجعة منه. ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب لأنه لا عمل بغير عقيدة ولا صلاح بغير إيمان إن هدى الله هو الهدى وإن نور الله هو النور"[١].

وبمعاودة النظر مرة أخرى إلى المثل الأخير نجد أنه قد احتوى صورة رائعة من البيان كانت ولازالت ناطقة أكثر منها معبرة وحافلة بالخيال، فالعناصر التى تركبت منها لا علاقة لها بالبيئة الصحراوية ولا بالمستوى العقلى لأهلها ولا بالمعارف البحرية فى العصر الجاهلى بل كل عناصر تلك الصورة منتزعة من بلاد يلفها الضباب فى الدنيا الجديدة.

وهل كان العربى فى عصر الفصحى فى استطاعته أن يدور بذهنه هذا التعبير فضلا عن أن يتفوه به أو أن يطوف بخياله. لقد كان هذا المثل بتعبيراته ينطوى على دليل من أهم أدلة الإعجاز كما كان شاهدا على أن هذا القرآن الكريم من عند الله -عز وجل-

---

[١]- فى ظلال القرآن ٤/٢٥٢١.

فرجل عاش فى البادية وفى كنف الصحراء البعيدة كل البعد عن عالم البحار كيف يتحدث عن ظواهر البحار والمحيطات؟ ومن أين له هذه المعلومة الدقيقة؟ إنه ولاشك كلام عليم خبير وهو الله -عز وجل- إنه القرآن الكريم.

وبعد: فعندما نتأمل ونرجع التفكير فى هذه الأمثال القرآنية التى صورت أعمال الكافرين نجد أن كل مثل يختلف عن الآخر ومع ذلك لا نحس بتكرار فى اللفظ أو المعنى ولا فى الصورة والخيال بل نجد الصورة المتجددة والخيال الخصب إضافة إلى سبك العبارة وجزالة الأسلوب والمعنى المبتكر ومناسبة المثل وإيراده وغير ذلك من الأمور التى تضفى ظلالا من القوة والتأثير.

وبيان ذلك:

أن التقابل واضح بين المثلين الواردين فى سورة النور من حيث العناصر المكونة للصورة فى كل منهما فالأول سراب فى صحراء ممتدة والثاني ظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب.....إلخ فعناصر الصورة فى التمثيل الأول مستمدة من البر والبر خراب ليس فيه إلا الصحراء وأهوالها والكافر يلهث وراء الوهم ويركض وراء السراب فى هذا الخراب.

وفى التمثيل الثانى مستمدة من البحر والسحاب حيث أطبقت ظلماتهما وغاب نفعهما فلا وجود له فى وسط هذا الظلام.

كما يتضح أيضا أن هذين المثلين -وكل الأمثال القرآنية كذلك- متسقان فى سياقهما ومتلائمان مع المعانى التى أبرزتها السورة الكريمة إذ تصور حال من أعرض عن شرع الله -عز وجل- والتمس الهدى فى غيره.

وعندما نتأمل تمثيل أعمال الكفار فى سورة إبراهيم وتمثيل أعمالهم فى سورة النور يتضح:

أن الكافر -فى سورة إبراهيم- لا وجود له وأما أعماله فهى التى برزت فى التمثيل. بخلاف سورة النور فقد برز الكافر يركض وراء السراب الذى يصور أعماله ولعل السر فى ذلك هو -ولله العلم- أن السياق فى سورة النور يشرح شرع الله -عز وجل- ويوضح حدوده التى مثلها بالنور فالمؤمن يسعى بنور الله -عز وجل- ويمضى على هديه والكافر يعرض عن النور ويأبى إلا التخبط فى الظلمات والركض وراء الوهم والسراب لهذا أبرزه التمثيل ليتلاءم مع سياق السورة المباركة.

وأما فى سورة إبراهيم فإن السياق يصور الكافر وقد انتهت حياته فهاهو ذا فى جهنم والزبانية تسقيه من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه والموت قد أحاط به من كل مكان وكأنه جيش يهجم عليه من كل ناحية فلا يستطيع مقاومة "ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ" ذلك هو سياق التمثيل فى سورة

إبراهيم ولا يتأتى فيه -كما أميل- أن يبرز الكافر كما برز فى سياق سورة النور.

كما يتبين أيضا أن هذين المثلين يتفقان فى أن الجامع بين الصورتين فيهما هو: خلو كل منهما من الماء ففى سورة إبراهيم رماد محترق تذهب به الريح فى مهابها فى يوم عاصف وفى سورة النور سراب فى صحراء حارقة متوقدة لا حياة فيها.

كما يتفقان أيضا فى أنهما بمثابة تلخيص وتصوير لمعان جرت فى القرآن الكريم كثيرا تدور حول بيان الكفر والجهل بالظلمات والإيمان والوحى بالنور فالمؤمنون يخرجهم إيمانهم من الظلمات إلى النور وأصحاب الجبت والطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات[١].

فهذا التصوير يدفع النفوس والقلوب إلى التباعد عن الكفر الذى يثير الخوف ويجلب الخيبة ويمحق الآثار الصالحة.

وفرق كبير بين هذا التصوير وبين تصوير الأعمال النافعة ذات الأثر الطيب الموصول بالله -عز وجل- فى قوله تعالى: "مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله

---

[١]- دراسة فى البلاغة والشعر /٣٤ ومن بلاغة النظم القرآنى /٣٣٩.

بما تعملون بصير" [سورة البقرة/٢٦٥].

فصورة المشبه به فى هذا النظم الكريم منتزعة من الجنة - البستان المثمر- الذى يثير فى النفس البهجة والسرور فتتلذذ النفس وينتعش الحس ثم إن هذه الجنة بربوة -مكان مرتفع- وهو دليل الخصوبة الأرضية التى تعطى الأشجار النماء وللأثمار التمام والنضج ثم إنه محل لسقوط الأمطار الغزيرة التى تضاعف من الإنتاج وإن لم يكن هناك مطر فإن ارتفاع المكان يكفيه الطل - الندى- إذن فلا جفاف ولا ملوحة فى التربة لغسلها المستمر وذلك يضاعف من الإنتاج ومن البهجة به.

وهكذا أعمال الصالحين يتلقاها الله -عز وجل- بالقبول والنماء ويربيها حتى تصير مثل جبل أحد فيجدون فيها الخير الكثير والنفع الوفير ويسعدون بها أيما سعادة[1].

نسأل الله -عز وجل- أن نكون جميعا من هؤلاء الصالحين المقبولين.

مثل اتخاذ الأصنام آلهة

قال تعالى: "مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا

---

[1]- من جمال النظم القرآنى /١١٠.

يعلمون" [سورة العنكبوت/٤١].

لما بين الله -عز وجل- أنه أهلك المشركين وأفناهم لما كذبوا الرسل وبالغوا فى العناد وكان هذا بمثابة تعجيل العذاب لهم فى الدنيا زيادة على ما أعد لهم فى الآخرة من عذاب مقيم ولم ينفعهم فى الدارين من دون الله -عز وجل- معبود ولم يدفع عنهم العذاب ركوعهم للأصنام وسجودهم.

لما بين هذا ضرب لهم مثلا فى اتخاذهم معبوداتهم آلهة باتخاذ العنبكوت بيتا لم يقها من شر عاد عليها.

فقد مثلت حال المشركين -ومن ماثلهم- فى اتخاذهم أولياء (آلهة) من دون الله -عز وجل- يعبدونها ويرجون نصرها ورزقها ويتمسكون بها فى الشدائد بحال العنكبوت اتخذت لنفسها بيتا من النسج الضعيف الذى لا يجير آويا ولا يريح ثاويا فنسج العنكبوت مثل عند الناس فى الضعف والوهن وهذا شأن ما يعبد من دون الله -عز وجل- ويتخذ وليا ويبغى ربا.

ووجه الشبه هو: الهيئة الحاصلة من الضعف والاعتماد على من ليس بشىء فكما أن ما اعتمدت عليه العنكبوت من بيتها ليس بشىء كذلك ما اعتمد عليه الكفار من آلهتهم ليس بشىء لأنهم لا ينفعون ولا يضرون أو هو: الهيئة الحاصلة من صورة شىء يحتمى بآخر لا يحميه.

فالمقصود من المثل هنا -ولله العلم- بيان ضعف هذه القوة التى يستند إليها الكفار وتصوير وهنها وكأن الله -عز وجل- أراد أن يرد على المشركين ومن نهج نهجهم غباءهم وزعمهم الباطل عندما أرادوا أن يثيروا الشكوك ويذيعوا البلبلة منكرين ضرب الله -عز وجل- المثل بالذباب والعنكبوت فهو -سبحانه- خالق الصغير والكبير والضعيف والقوى فلا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

"وكأنه -تعالى- يقول لهم: "فرقوا بين الممثل به وبين الغرض من المثل فإذا كان الغرض من المثل توهين الشىء فلا يمكن أن يؤدى ذلك إلا إذا جئنا بشىء ضعيف إذن فإتياننا بالضعيف هو عين القوة فى ضرب المثل"[1].

وقوله تعالى: "مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء" استئناف متضمن تقبيح حال أولئك الظالمين لأنفسهم وأضرابهم ممن تولى غير الله -عز وجل- وفيه إشارة إلى أعظم أنواع ظلمهم والضمير فى "اتخذوا" عائد إلى معلوم من سياق الكلام وهم مشركو قريش وجملة "وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت" مبينة وجه الشبه وهى تجرى مجرى المثل فيضرب لقلة جدوى شىء فاقتضى ذلك أن

١- الأمثال فى القرآن /٥٥.

الأديان التى يعبد أهلها غير الله -عز وجل- هى أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات كما تتفاوت بيوت العنكبوت فى غلظها بحسب تفاوت الدويبات التى تنسجها فى القوة والضعف.

وبالتأمل فى هذا التمثيل نجد أن التعبير بكلمة "بيتا" دون "نسجا" توحى بمعان كثيرة فالبيت له خصائص وله فوائد إذ يأوى إليه صاحبه فيسكن فيه ويتقى به الحر والبرد وعصف الرياح وأذى الأمطار وغير ذلك مما يقام له البيت ولكن العنكبوت لا يحصل له من اتخاذها ذلك النسج شىء من معانى البيت وفوائده كذلك الكفرة لا يحصل لهم باتخاذ الأوثان أولياء من دون الله شىء من معانى الولى... البيت ينفع صاحبه ويمنع عنه الضرر ولا شىء من ذلك فى نسج العنكبوت فإن الأذى ينفذ منه إليها لا يمنع ذلك النسج عنها ضررا ولا يجلب لها نفعا وهذا شأن ما يعبد من دون الله -عز وجل-.

ففى التمثيل تنبيه للمشركين وحث لهم على النظر والتأمل ليقفوا على الخطأ فيقلعوا عنه فإن نسج العنكبوت إذا خيم فى زاوية من مكان وظل مدة تعقبه صاحب المكان حتى يزيله وينظف المكان منه ويقتل العنكبوت الذى نسج أو على الأقل يؤذى فى أثناء عملية التنظيف جسده وإن نسج فى فضاء فسرعان ما تهب الريح فتجعله

هباء منثورا. وكذا ما يعبد من دون الله -عز وجل- إن استمر العابد فى عبادته له وداوم على اتخاذه وليا فلن يكون فى ذلك إلا الضرر للعابد والأذى يلحقه فينبغى التنبيه والإقلاع عما يكون فيه الأذى والضرر.

والتعبير بالاتخاذ فى جانب المشبه والمشبه به (اتخذوا....اتخذت) يشعر بما لهذه الأشياء من نفع فالحجارة والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك مما يعبد من دون الله له نفع ويستدل به على قدرة الله -تعالى- والخطأ إنما هو فى عبادتها من دون الله واتخاذها آلهة وكذا نسج العنكبوت لا يخلو من فائدة كاصطيادها به الذباب ونحوه والخطأ إنما هو فى اتخاذها بيتا وليس فيه خصائص البيت[1].

وفى التعبير بـ "أولياء" دون "آلهة" يدل على كمال قدرة الله -عز وجل- وتفرده بالجلال والسلطان وظهور عجز من سواه فهم فى الوهن والضعف عندما يلجأ إليهم ويراد نفعهم وينظر إلى قدرتهم كنسج العنكبوت عندما يتخذ بيتا.

كما أن فى التعبير بـ "أولياء" دون "آلهة" إشارة إلى إبطال الشرك الخفى أيضا فإن من عبد الله -عز وجل- رياء لغيره فقد

١- مفاتيح الغيب ١٢/٣٩٦،٣٩٧.

اتخذ وليا غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتا.

ولفظ "العنكبوت" قال عنه النحاة: إن التاء فى آخره مزيدة لأنها تسقط فى التصغير والجمع وهى مؤنثة وحكى الفراء تذكيرها وأنشد:

على هطالهم منهم بيوت   كأن العنكبوت قد ابتناها[١]

ويجمع على: عناكيب وعناكب وعكاب وعكب وأعكب ويقال: عنكب وعكنباة قال الشاعر:

كأنما يسقط من لغامها   بيت عكنباة على زمامها

وتصغر فيقال: عنيكب وعنيكيب وذكر الألوسى أن التاء فى "العنكبوت" زائدة كتاء "طالوت". ووزنه "فعللوت" ويقع على الواحد

١- ويروى: "على أهطالهم منهم بيوت" والهطال: اسم جبل والعنكبوت: الدويبة المعروفة تنسج نسجا رقيقا مهلهلا بين الهواء ويصيد به الذباب وهناك نوع آخر يحفر بيته فى الأرض ويخرج فى الليل كسائر الهوام والمراد الأول وحكى عن يزيد بن ميسرة أن العنكبوت شيطان مسها الله تعالى.
وقال عطاء الخرسانى: نسجت العنكبوت مرتين: مرة على داود حين كان جالوت يطلبه ومرة على النبى -ﷺ- حين كان الكفار يطلبونه فبقدرة الله -عز وجل- انتصر الحرير أمام الحديد. ولذلك نهى عن قتلها ويروى عن على -رضى الله عنه- أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه فى البيوت يورث الفقر (الجامع لأحكام القرآن ٥٢٣٥/٧).

والجمع والمذكر والمؤنث.. واستظهر الفاضل سعدى جلبى كون المراد به هنا الواحد وذهب إلى تأنيثه أيضا فذكر أنه اختير هنا تأنيثه لأنه المناسب لبيان الخور والضعف فيما يتخذه وقال مولانا الخفاجي معرضا به: الظاهر أن المراد الجمع لا الواحد لقوله تعالى: "الذين" وأما إفراد "البيت" فلأن المراد الجنس ولذلك أنث "اتخذت" لا لأن المراد المؤنث ثم ذكر ما جاء في القاموس حول كلمة "العنكبوت" من إفراد وجمع[١].

وقال أبو السعود إن "العنكبوت" يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى الاستعمال التأنيث[٢].

ومما سبق يتضح أن التعبير بصيغة الفعل المؤنث "اتخذت" للدلالة -ولله العلم- على الخور والضعف وربما كان مرادا به الجنس لا التأنيث.

لكن الدكتور/ مصطفى محمود -وتبعه بعض من الأدباء والعلماء[٣]- يرى أن القرآن الكريم قد اختار صيغة التأنيث حينما تحدث عن العنكبوت لأن أنثى العنكبوت هى التى تنسج البيت

١- راجع: روح المعانى ٢٠/١٦١،١٦٢.

٢- إرشاد العقل السليم ٤/٢٦٠.

٣- راجع: القرآن كتاب الله الخالد /١٥٨.

وليس الذكر وهى حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن[1] وهذا كلام لم يسبق إليه العلم الحديث -الذى بدأ يبرز فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرون- كما قال الدكتور مصطفى محمود.

ولكننا لا نتفق معه فيما ذهب إليه من القول بأن هذا كلام لم يسبق إليه العلم الحديث لأن الجاحظ -رحمه الله- الذى مر على وفاته الآن أكثر من أحد عشر قرنا حيث توفى سنة (٢٥٥هـ). قد قال هذا الكلام[2].

وتقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) فى ردها على الدكتور/ مصطفى محمود:

ويعرف المبتدئون من طلاب العربية أن القرآن الكريم جرى هنا على لغة العرب الذين أنثوا لفظ "العنكبوت" من قديم جاهليتهم الوثنية كما أنثوا مفرد النمل والنحل والدود فلم يقولوا فى الواحد منها إلا نملة ونحلة ودودة وهو تأنيث لغوى لا علاقة له بالتأنيث البيولوجى كما وهم المفسر العصرى وجرى لسانهم كذلك على تأنيث الشمس والأرض والسماء والدار والسوق وكل ما يعرف

١- انظر: القرآن محاولة لفهم عصرى /٢٥١،٢٥٢.

٢- راجع: الحيوان ٥/٤١٠-٤١٦.

فى المصطلح اللغوى بالتأنيث المجازى دون أن يتصور من له أدنى اتصال بالعربية أن التأنيث هنا يحمل على التأنيث البيولوجى وقبل أن ينزل القرآن الكريم بآيات:

"وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا" [سورة النحل/٦٨].

و"قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم" [سورة النمل/١٨].

و"كمثل العنكبوت اتخذت بيتا" [سورة العنكبوت/٤١].

و"إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها" [سورة البقرة/٢٦].

كان أى عربى وثنى "من أجلاف البوادى" ينطق بها على التأنيث فلا نتصور أن فى ذلك إشارة علمية إلى ما اكتشفه عصرنا من بيولوجيا الحيوان. ثم تقول:

هل يكون لمثل هذا المفسر العصرى أن يهتدى إلى ما غاب عن النبى القرشى والعرب الفصحاء من لغة كتاب عربى مبين وأسرار بيانه وإن الطفل البدوى ليدرك أن العرب أنثوا العنكبوت من قديم وثنيتهم الجاهلية[١].

١- القرآن والتفسير العصرى /١٦٨،٩٧.

هذا جانب وجانب آخر تورط فيه الدكتور/ مصطفى محمود وهو قوله:

والحقيقة الملفتة للنظر هى وصف بيت العنكبوت بأنه "أوهن البيوت" ولم يقل القرآن "خيط العنكبوت" أو "نسيج العنكبوت" وإنما قال: بيت العنكبوت وهى مسألة لها دلالة ولها سبب.

والعلم كشف الآن بالقياس أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات وأقوى من خيط الحرير وأكثر منه مرونة.

فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجات العنكبوت وافيا بالغرض وزيادة.. ويكون بالنسبة له قلعة أمينة حصينة فلماذا يقول القرآن: "وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت" ......لابد أن هناك سرا. والواقع أن هنا سرا بيولوجيا.. كشف العلم عنه فيما كشف لنا مؤخرا فالحقيقة أن "بيت العنكبوت" هو أبعد البيوت عن صفة البيت بما يلزم البيت من أمان وسكينة وطمأنينة وعلل لهذا بقتل الأنثى للذكر بعد تلقيحها والأبناء يأكل بعضهم بعضا بعد الخروج من البيت ولهذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقحها ولا يحاول أن يضع قدمه فى بيتها. وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخا وكمينا ومقتلا لكل حشرة صغيرة تفكر فى أن تقترب منه وكل من يدخل البيت من زوار وضيوف يقتل ويلتهم إنه ليس بيتا إذن بل مذبحة يخيم عليها الخوف والتربص وإنه لأوهن البيوت لمن يحاول أن يتخذ منه

ملجأ[١].

وهذا السر البيولوجي الذى كشف عنه الدكتور/ مصطفى محمود لا يصلح علة لوهن البيوت الذى تتحدث عنه الآية الكريمة لأنها تتحدث -ولله العلم- عن أوهن البيوت وهو بيت العنكبوت من أن صفات البيت ليست قائمة فيه ليس به حائط ولا سقف ولا باب إلى آخر ما هو معروف من صفات البيت أما الذى يتحدث عنه الدكتور/ مصطفى محمود فهو التمزق الأسرى وهذا لا علاقة له هنا بالتشبيه والتمثيل المقصود -ولله العلم- من الآية المباركة ولو أنه ذكر هذا من باب طبائع العنكبوت وعاداتها لو أنه حدثنا عن العنكبوت ونسجه وبيته ذى الشكل الهندسى وطريقة غذائه وصيده لكان خيرا له أما أن يدل بها على وهن البيوت فهذا ليست له أدنى صلة بما قصده القرآن -ولله العلم- من التعبير بأنه المثل.

ولسنا الآن بصدد شرح ما فى العنكبوت من صفات وطبائع فهذا ليس من طبيعة البحث وقد ذكره العلماء والأدباء فى حديثهم عن هذه الحشرة[٢].

١- القرآن محاولة لفهم عصرى ٢٥٢/٢٥١.

٢- راجع: القرآن كتاب الله الخالد ١٥٩،١٥٨، وموسوعة الأمثال القرآنية ٢٠٥/٢-٢٠٩.

وبالتأمل فيما ذكـره الدكتور/ مصطفى محمود نجد أنـه قد تورط من وهم إلى وهم أشنع فأضـاع كل السر البيـانى لهذا النظم الكريم حين قرر ما وصفه بالحقيقة العلمية وهى: أن خيط العنكبـوت أقوى من مثيله من الصلـب ثلاث مرات وأقوى من خيط الحريـر وأكثر مرونة" وعلى هذا التفسير العصرى لا يصلـح بيت العنكبوت مضربا للمثل على الوهن لأنه ليس أهـون مـن بيت الصلـب أو مـن بيت الحرير اتخذته دودة القز [1] فتأويله يمسخ الصورة الأدبية ويفقدهـا الأثر النفسى المراد فى بيان فساد ألوهية الأوثان.

ويرد فضيلة الأستاذ الشيخ/ محمد متولى الشعراوى علـى مـا ذهب إليه الدكتور/ مصطفى محمود فيقول:

"هنا لابد أن نتوقف لحظة أمام مـا يقـال ومـا يشـاع عـن هـذا المثل فبعض الناس يقول: إن خيـوط العنكبـوت فيهـا صلابـة أو هـى قوية على الأقل بالنسبة للحشرات التى تسقط فى بيته فهذه الحشـرات عندما تسقط وتحيط بها خيوط العنكبوت لا تستطيع أن تتخلص منهـا ذلـك لأن الخيـط أقـوى مـن قـدرة الحشـرة نقـول لهـؤلاء جميعـا: إن القرآن كتاب نزل للإنسان وهو يخاطب الناس حسب قدرتهم البشـرية ومن هنا فإننا لا يجب أن نضع قياسا غير ذلك ونحـن نريـد أن نفهـم

١- القرآن والتفسير العصرى /٩٨.

معانى القرآن.... الوهن هنا هو بالنسبة لقدرة الإنسان وقوة الإنسان".

وقد قدم فضيلة الأستاذ الشيخ لهذا المثل القرآنى بمقدمة -لا نحتاج معها إلى تعقيب- تبين فساد هذا القول الذى ذهب إليه الدكتور/ مصطفى محمود ومن تبعه[١].

كل ما أقوله: إن الحديث عن الإعجاز العلمى للقرآن الكريم لا ينبغى أن يكون على حساب الإعجاز البيانى وبالتالى لا يكون هناك تصادم أو تعارض بينهما.

هذا: وقد جاء فى النظم الكريم لون بديعى عرف عند البلاغيين بالإرصاد[٢] وهو كما عرفه الخطيب القزوينى: "أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى وقال عنه ويسمى: التسهيم أيضا"[٣] وتوضيحه فى النظم الكريم:

١- راجع: معجزة القرآن ١١٣/٦،١١٤.

٢- سماه قدامة وأبو هلال العسكرى "التوشيح" وسماه ابن الأثير الإرصاد وأخرجه بعض العلماء ومنهم التنوخى: من علم البديع وألحقه بعلم البيان (راجع: نقد الشعر /١٦٧ والصناعتين /٤٢٥ والمثل السائر ٢٠٦/٣ والأقصى القريب /١٠٤،١٠٥) وعلى كل لا مشاحة فى الاصطلاح فالمؤدى واحد.

٣- الإيضاح /١٩٨.

أن السامع إذا وقف على قوله -عز وجل-: "وإن أوهن البيوت" يعلم أن بعده بيت العنكبوت فدل المتقدم على المتأخر وخير الكلام ما دل بعضه على بعض ودلت موارده على مصادره وكشف أوله عن آخره.

ومعلوم أن أول الكلام لا يدل على آخره إلا لشدة ارتباطه به وذلك من أعلى المطالب كما قيل[١].

وجواب "لو" في قوله تعالى: "لو كانوا يعلمون" محذوف ليذهب الوهم كل مذهب أي لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئا وأن هذا مثلهم لما عبدوها لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف فالله -عز وجل- لم ينف عنهم علمهم بوهن العنكبوت وإنما نفى علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا" فلو علموا ذلك لما فعلوا ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزة وقوة فكان الأمر بخلاف ما ظنوا.

وبعد: فلقد أخذ هذا المثل قوته ومعالم صوره من البيئة العربية حيث صور ضعف الآلهة التي اتخذها المشركون أولياء من دون الله -عز وجل- بمثل بارز للناس من البيئة التي يعيشون فيها

١- فن البديع /٥٩.

ومن المشاهدات التى يرونها فالعنكبوت مشاهد فى كل بيت وهو فى حد ذاتها غير محبوبة وشكلها مخيف كما أن ما تقيمه من بيت لا يستغرق مدة طويلة والقضاء عليه سهل فالمثل القرآنى قد صور الأمر المعنوى بالصورة المرئية المحسوسة وذلك للتقريب والإفهام.

فماذا بعد تصوير هذا الأمر المعنوى بصورة مألوفة مشاهدة ترى فىكل زمان وفى كل مكان؟ وهل يجوز للعاقل بعد أن يعرف هذا التصوير أن يترك عبادة الله -عز وجل- العزيز الحكيم القادر على كل شىء ويشتغل بعبادة من ليس بشىء أصلا؟

هذا: وأستطيع من خلال ما تناولته من أمثال قرآنية أن أوجز **أهم الخصائص لأمثال القرآن فى الأمور التالية:**

أولاً: هى لون من ألوان الهداية الإلهية ترشد الخلق إلى الحق وتبعدهم عن الباطل فلها دور هام فى خدمة الدعوة الإسلامية بتقريبها للعقول والأفهام ما غاب عنها حتى أدركته عيانا.

ثانياً: إنها لون من ألوان الأدب امتاز بسرعة التصوير ودقة الأداء وإحكام العبارة وتناسق الألفاظ والإحاطة بالموضوع فهى ذروة فى الإعجاز الفنى.

ثالثاً: تعدد موضوعاتها من إيمان وكفر ونفاق وبيان قبول عمل المؤمنين وإحباط عمل غيرهم ليعرف الجميع النتيجة.

رابعاً: تعدد الأمثال فى موضوع واحد ومع تعددها فى موضوع واحد لم نلحظ تكرارا لأن المعنى المراد تصويره له جوانب

عدة وملامح متفاوتة واعتبارات متنوعة لذلك لا نحس منها بالنبو أو الحشو أو الزيادة والتكرار بل نحس بأن هذا المثل قد طرق جانبا يختلف عن المثل الآخر وفى صياغة جديدة وصور مختلفة.

خامساً: تعد أمثال القرآن الكريم على اختلاف موضوعاتها لوحات فنية رائعة لتصوير مشاهد الطبيعة بأشكالها وأنواعها المختلفة وفى هذه اللوحات مشاهد ألفتها العرب وعرفتها فى حياتها وفيها ما لم تعرفه ولا رأته ولا سمعت به مما قد يعرفه بعض الأمم والشعوب الأخرى.

سادساً: تأخذ أمثال القرآن فى أغلب الأحيان طابع القصة فى عرض الجزئيات وتفصيل صفاتها وذلك على خلاف المألوف عند العرب من تكثيف المثل وعرضه فى أقل قدر ممكن من الكلمات.

سابعاً: نحت الأمثال فى القرآن الكريم نحوا فريدا متميزا فأبرزت المعقول فى صورة المحسوس وجعلت المعنوى فى ثوب المحسوس وأوضحت المبهم وفصلت المجمل فالحق تبارك وتعالى عندما يريد أن يوضح قضية تغمض على بعض الناس يشرحها بمثل معروف للناس ليظهر الخفى فى صورة الجلى والغائب فى صورة المشاهد ويجعل المتخيل فى صورة المتحقق ومن فضل الأمثال على المعانى أنها تكسبها روعة وتستميل القلوب إليها.

وغير ذلك مما يتوصل إليه القارىء الكريم لأن ما ذكرته - وما يذكره بل وما سيذكره غيرى- غيض من فيض مما يزخر به القرآن الكريم من نفائس البيان فى هذا الميدان.

وبعد: فلقد عشنا مع وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم.. عشنا مع بعض الأمثال القرآنية نستجلى معانيها ونجنى من ثمر البيان والفصاحة والبلاغة فيها أطايب الثمر وروائع النظم المعبر عن الفكر.

فالله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يغفر لى سوء الفهم أو العجز عن التعبير فقد كان القصد شريفا والنية طيبة والعزيمة مؤكدة.

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا....."

ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله -ﷺ- وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الدكتور

محمد عبد المنعم على متولى

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - وضعه الأستاذ/ محمد فؤاد عبد الباقى - طبعة مؤسسة جمال للنشر - بيروت - لبنان - بلا تاريخ.

ثالثاً:

١- الإتقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى تحقيق الأستاذ/ محمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار التراث بالقاهرة - بلا تاريخ.

٢- أدب الدنيا والدين لأبى الحسن على بن محمد الماوردى تحقيق وتعليق/ محمد فتحى أبو بكر - ط١/١٤٠٨هـ-١٩٨٨م - الدار المصرية اللبنانية - الناشر: دار الريان للتراث.

٣- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق الأستاذ الشيخ/ محمود محمد شاكر - ط١/١٤١٢هـ-١٩٩١م مطبعة المدنى - المؤسسة السعودية بمصر - الناشر: دار المدنى بجدة.

٤- أساس البلاغة للإمام جار الله الزمخشرى تحقيق/ عبد الرحيم محمود - ط دار المعرفة - بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٥- أسس النقد الأدبي عند العرب أ.د/ أحمد أحمد بدوى - ط٢/١٩٦٠م - نهضة مصر بالقاهرة.

٦- أسلوب السخرية فى القرآن الكريم د/ عبد الحليم حفنى - ط١٩٨٧م - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٧- الإعجاز البلاغى دراسة تحليلية لتراث أهل العلم أ.د/ محمد محمد أبو موسى - ط١/١٤٠٥هـ-١٩٨٤م - مطبعة المختار الإسلامى - الناشر: مكتبة وهبة بالقاهرة.

٨- الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانة أ.د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) - ط١/١٩٧١م - دار المعارف المصرية.

٩- الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان للأستاذ الشيخ/ أحمد محمد الحجار - ط/١٩٧٣م - دار الاتحاد العربى بالقاهرة.

١٠- الأقصى القريب فى علم البيان للتنوخى - ط١ الخانجى - القاهرة - بلا تاريخ.

١١- الأمثال فى القرآن الكريم للإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر الذرعى الدمشقى المعروف بابن قيم الجوزية تحقيق أبو حذيفة إبراهيم بن محمد - ط١/١٤٠٦هـ-١٩٨٦م - مكتبة الصحابة

بطنطا. ونسخة أخرى تحقيق/ سعيد محمد نمر الخطيب - دار الباز للنشر بمكة المكرمة - بلا تاريخ.

١٢- الأمثال فى القرآن للدكتور/ محمود بن الشريف (سلسلة اقرأ العدد ٢٦٥) - ط٢/١٩٦٥م - دار المعارف المصرية.

١٣- الأمثال فى القرآن لفضيلة الأستاذ الشيخ/ محمد متولى الشعراوى إعداد الأستاذ/ عبد القادر أحمد عطا - ط/١٩٨٠م - دار المسلم بالقاهرة.

١٤- الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى شرح وتعليق وتنقيح أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجى - ط٢/١٩٨٤م - الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية.

١٥- الإيضاح فى علوم البلاغة المعانى والبيان والبديع للخطيب القزوينى ط/١٣٩٠هـ-١٩٧١م محمد على صبيح بالقاهرة.

١٦- البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن مالك بن عبد الله الزركشى تحقيق الأستاذ/ محمد أبو الفضل إبراهيم - ط مكتبة دار التراث بالقاهرة - بلا تاريخ.

١٧- البلاغة بين الأمثال القرآنية والنبوية دراسة وتحليل أ.د/ عبد الفتاح محمد سلامة - ط١/١٤٠٥هـ-١٩٨٤م - مطبعة الأمانة بالقاهرة.

١٨- بلاغة تطبيقية دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص أ.د/ بسيونى عبد الفتاح فيود - ط١/١٤١٢هـ-١٩٩١م - مطبعة الحسين الإسلامية بالقاهرة.

١٩- البيان فى ضوء أساليب القرآن أ.د/ عبد الفتاح لاشين - ط١/١٩٧٧م - دار المعارف المصرية.

٢٠- البيان القرآنى أ.د/ محمد رجب البيومى (من سلسلة الكتب التى يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة) - الكتاب الواحد والثلاثون ربيع الثانى ١٣٩١هـ-مايو ١٩٧١م.

٢١- التحبير فى علم التفسير للسيوطى تحقيق أ.د/ فتحى عبد القادر فريد - ط دار المنار بالقاهرة ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٢- الترغيب والترهيب للمنذرى - ط مكتبة شباب الأزهر الشريف بالقاهرة - بلا تاريخ.

٢٣- التصوير البيانى دراسة تحليلية لمسائل البيان أ.د/

محمد أبو موسى -ط٢/١٤٠٠هـ-١٩٨٠م - دار التضامن - الناشر: مكتبة وهبة بالقاهرة.

٢٤- تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبى السعود - ط دار الفكر - بلا تاريخ.

٢٥- تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوى - دار الجيل - بيروت - بلا تاريخ.

٢٦- تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام أبى جعفر الطبرى - دار المعارف للنشر والطباعة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٢٧- تفسير الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبى - ط١/١٤٠٩هـ-١٩٨٩م - دار الغد العربى بالقاهرة.

٢٨- تفسير روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى - ط مكتبة دار التراث بالقاهرة - بلا تاريخ.

٢٩- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام النيسابورى بهامش جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى - ط دار المعارف للنشر والطباعة ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٣٠- تفسير الفتوحات الإلهية - بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للعلامة سليمان ابن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل - ط عيسى البابى الحلبى بمصر - بلا تاريخ.

٣١- تفسير فى ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب - ط١٤٠٢/١٠هـ-١٩٨٢م - دار الشروق.

٣٢- التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ/ عبد الكريم الخطيب - ط بيروت - بلا تاريخ.

٣٣- التفسير القيم - ابن قيم الجوزية جمع/ محمد أو يس الندوى تحقيق/ محمد حامد الفقى - ط بيروت - بلا تاريخ.

٣٤- تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى رتبه وضبطه وصححه/ مصطفى حسين أحمد - ط١٤٠٧/٣هـ-١٩٨٧م - دار الريان للتراث بالقاهرة.

٣٥- تفسير مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى - ط ١٤١٢/١هـ-١٩٩٢م - دار الغد العربى بالقاهرة.

٣٦- الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى تحقيق أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى - ط/١٩٧٨م - الجيزة بالإسكندرية - الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية.

٣٧- حاشية الشهاب المسماة: عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى للشيخ/ أحمد بن محمد شهاب الدين الخفاجى المصرى - المكتبة الإسلامية - ديار بكر تركيا.

٣٨- حاشية العلامة الصاوى على تفسير الجلالين للعلامة الشيخ/ أحمد الصاوى المالكى - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بلا تاريخ.

٣٩- الحيوان لأبى عثمان الجاحظ تحقيق وشرح الأستاذ/ محمد عبد السلام هارون - ط٣/١٩٦٩م - منشورات المجمع العلمى العربى الإسلامى بيروت - لبنان.

٤٠- خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية أ.د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعنى - ط١/١٤١٣هـ-١٩٩٢م - الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

٤١- خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم أ.د/ محمد رجب البيومى (من سلسلة الكتب التى يصدرها مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة) - العدد:٤٢ عام ١٩٧١م.

٤٢- دراسة فى البلاغة والشعر أ.د/ محمد محمد أبو موسى - ط١/١٤١١هـ-١٩٩١م - المطبعة الفنية - الناشر: مكتبة وهبة بالقاهرة.

٤٣- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق الأستاذ الشيخ/ محمود محمد شاكر - ط/١٩٨٤م - مطبعة المدنى - المؤسسة السعودية بمصر - الناشر: مكتبة الخانجى بالقاهرة.

٤٤- الصناعتين: الكتابة والشعر لأبى هلال العسكرى تحقيق د/ مفيد قميحة - ط١٤٠١/١هـ-١٩٨١م - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

٤٥- علوم التفسير أ.د/ عبد الله شحاته - ط/١٩٨٦م - مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى - الناشر: مكتبة نهضة الشرق.

٤٦- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق تحقيق الأستاذ الشيخ/ محمد محيى الدين عبد الحميد - ط١٤٠١/٥هـ-١٩٨١م - دار الجيل - بيروت- لبنان.

٤٧- فتح البارى بشرح صحيح البخارى للإمام الحافظ أحمد ابن حجر العسقلانى تحقيق الأساتذة/ محمد فؤاد عبد الباقى ومحب الدين الخطيب وقصى محب الدين الخطيب - ط١٤٠٧/١هـ-١٩٨٧م - دار الريان للتراث.

٤٨- فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم أ.د/ فتحى أحمد عامر - ط/١٣٩٥هـ-١٩٧٥م - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة - لجنة القرآن والسنة.

٤٩- فن البديع أ.د/ عبد القادر حسين - ط١٤٠٣/١هـ-١٩٨٣م - دار الشروق بالقاهرة.

٥٠- القرآن كتاب الله الخالد للأستاذ/ حسين فؤاد طلبة - العدد: (٢٢٢) - ١٥ من رمضان ١٣٩٩هـ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة - سلسلة دراسات فى الإسلام.

٥١- القرآن والتفسير العصرى للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) - العدد: (٣٣٥) من سلسلة اقرأ نوفمبر ١٩٧٠م - دار المعارف المصرية.

٥٢- القرآن والصورة البيانية أ.د/ عبد القادر حسين - ط١/١٢/١٤١٢هـ-١٩٩١م - دار المنار بالقاهرة.

٥٣- القرآن محاولة لفهم عصرى للدكتور/ مصطفى محمود - ط٥/١٩٨٧م- دار المعارف المصرية - وط دار الشروق ١٩٧٠م.

٥٤- كتاب معانى الحروف لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى تحقيق الدكتور/ عبد الفتاح إسماعيل شلبى - ط دار نهضة مصر بالفجالة - القاهرة - بلا تاريخ.

٥٥- لسان العرب لابن منظور تحقيق الأساتذة/ عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى - ط دار المعارف المصرية - بلا تاريخ.

٥٦- مباحث فى علوم القرآن للشيخ/ مناع القطان - ط٧/١٤١٠هـ-١٩٩٠م - الناشر: مكتبة وهبة بالقاهرة.

٥٧- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير تحقيق أ.د/ أحمد الحوفى وأ.د/ بدوى طبانة - ط دار نهضة مصر بالقاهرة - بلا تاريخ.

٥٨- مجمع الأمثال للميدانى تحقيق الأستاذ/ محمد أبو الفضل إبراهيم - ط/١٩٧٧م - عيسى البابى الحلبى بالقاهرة.

٥٩- مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى ترتيب/ محمود خاطر - ط دار المعارف المصرية ١٩٧٧م.

٦٠- مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للشيخ/ محمد عليان المرزوقى - بحاشية الكشاف - ط٣/١٤٠٧هـ-١٩٨٧م - دار الريان للتراث.

٦١- معترك الأقران فى إعجاز القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى تحقيق الأستاذ/ على محمد البجاوى - ط ونشر دار الفكر العربى بالقاهرة.

٦٢- معجزة القرآن لفضيلة الأستاذ الشيخ/ محمد متولى الشعراوى - ط أخبار اليوم ١٩٩٣م.

٦٣- المعجم العربى الأساسى إعداد جماعة من كبار اللغويين العرب - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م - توزيع لاروس.

٦٤- مع النظم القرآنى فى سورة النور أ.د/ الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت - ط١/١٤٠٧هـ-١٩٨٦م - الأمانة بالقاهرة.

٦٥- مفتاح العلوم لأبى يعقوب يوسف السكاكى تحقيق الأستاذ/ نعيم زرزور - ط٢/١٤٠٧هـ-١٩٨٧م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٦٦- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى - ط/١٩٩١م - دار التحرير للطبع والنشر (كتاب الجمهورية).

٦٧- المنجد فى اللغة والأعلام للأستاذ/ لويس معروف - ط٢٢/١٩٧٣م - دار الشروق - بيروت.

٦٨- من بدائع النظم القرآنى للدكتور/ عبد الفتاح السيد حجاب - مطبعة الجندى - بنها الجديدة - بلا تاريخ.

٦٩- من بلاغة القرآن الكريم أ.د/ إبراهيم طه أحمد الجعلى - ط١/١٤١٢هـ-١٩٩١م - مطبعة الحسين الإسلامية بالقاهرة.

٧٠- من بلاغة النظم القرآنى أ.د/ بسيونى عبد الفتاح فيود - ط١/١٤١٣هـ-١٩٩٢م - مطبعة الحسين الإسلامية بالقاهرة.

٧١- من جمال النظم القرآنى فى سورة إبراهيم دراسة تحليلية بلاغية مقارنة أ.د/ صلاح الدين محمد أحمد ط١/١٤١٠هـ-١٩٨٩م - دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

٧٢- من علوم القرآن وتحليل نصوصه أ.د/ عبد القادر حسين - ط/١٩٨٧م -
دار قطر بن الفجاءة للنشر والتوزيع - الدوحة - قطر.

٧٣- من قضايا البلاغة والنقد أ.د/ عبد العظيم المطعنى - ط١/١٤٠٤هـ-١٩٨٤م - مطبعة حسان توزيع السلام العالمية بالقاهرة.

٧٤- موسوعة الأمثال القرآنية د/ محمد عبد الوهاب عبد اللطيف - ط١/١٤١٤هـ-١٩٩٣م - مكتبة الآداب بالقاهرة.

٧٥- نظرات فى التمثيل البلاغى أ.د/ محمود السيد شيخون - ط١/١٤٠١هـ-١٩٨١م - مطبعة أسامة الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

٧٦- نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر تحقيق وتعليق أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجى - ط١/١٤٠٠هـ-١٩٨٠م - دار عطوة - الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

٧٧- النكت فى إعجاز القرآن لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) - تحقيق أ.د/ محمد خلف الله وأ.د/ محمد زغلول سلام - ط دار المعارف المصرية - بلا تاريخ.

٧٨- النهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم أ.د/ عبد الغنى عوض الراجحى - ط عيسى البابى الحلبى - بلا تاريخ.

٧٩- الوحدة الفنية فى القصة القرآنية د/ محمد الدالى - ط١/١٤١٤هـ-١٩٩٣م - مطبعة أمون.

٨٠- الوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى - ط عيسى الحلبى ١٩٦٦م.

فهرس المـــوضوعات

الموضوع..الصفحة

رقم الإيداع: ٩٧/٤١٧٣

الترقيم الدولى: 5 - 3088 - 19 - 977

مطبعة السلام بالزقازيق